يقول العلامة الزركشي والعلامة السيوطي رحمهما الله تعالى:

"قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز، طلبه أولًا من القرآن ... فإن أعياه ذلك طلبه من السنة فإنها شارحة للقرآن ... فإن لم يجده في السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك".[1]

يقول الإمام الفراهي رحمه الله بعد نقل هذا الكلام للسيوطي رحمه الله تعالى:

"فعلمت من هذا أن أول شيء يفسّر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي صلّى الله عليه وسلّم والذين معه ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه رضي الله عنهم ".[2]

ويقول في موضع آخر موضحًا هذا الترتيب:

"فالنبي صلّى الله عليه وسلّم تعلّم القرآن الكريم من الرب وعلّم الأمة. فهو خير الناس من غير شك. ثم من تعلّم منه وعلّم غيره".[3]

1. تفسير القرآن بالقرآن: وقال المفسرون والعلماء: "أحسن طريق التفسير أن يفسّر القرآن بالقرآن".[4]

يقول الإمام الفراهي رحمه الله:

"قالت العلماء قديمًا إن القرآن يفسّر بعضه بعضًا وذلك بأن ذلك ظاهر جدًا. فإن القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالًا وأخرى تفصيلًا. فما ترك في

[1] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/ 175 - 176، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 4/ 200

[2] الفراهي، مقدمة نظام القرآن، ص 7.

[3] الإمام الفراهي، رسائل الإمام الفراهي، دلائل النظام، ص 27.

[4] البرهان في علوم القرآن، 2/ 175

موضع ذكره في موضع آخر. وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع، فهذا أصل راسخ".[1]

2. تفسير القرآن بالسنة: ينقسم الحديث إلى قسمين: (أ) المتواتر المشهور، (ب) أخبار الأحاد.

أ– السنن العملية المتواترة: لم نذكر الأحاديث القولية المتواترة لأن العلماء اختلفوا في وجودها اختلافًا شديدًا، وأيضًا عددها قليل جدًا عند القائلين بها، وهذه الأحاديث المتواترة التي يعملون بها أهل السنة والجماعة دائمًا، والسنن المتواترة تتعلق بكل عمل لا يمكن فهم القرآن إلا بها، يحتاج شرح كل آية من القرآن الكريم إلى العمل النبوي الذي قبله الأمة تواترًا، والإعراض عن تلك السنن المتواترة إعراض عن الدين كله، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه".[2]

وجاء في حديث آخر: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين".[3]

قال الإمام الأوزاعي رحمه الله: "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب".[4].

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله موضحًا العبارة المذكورة:

"يريد أنها تقضي عليه وتبين المراد منه وهذا نحو قولهم: ترك الكتاب موضعًا للسنة، وتركت السنة موضعًا للرأي".[5]

لا يزال العلماء يترددون على هذا التعبير للإمام الأوزاعي هل هي توضيحاته التي قالها الحافظ ابن عبد البر، ولكن هذا التعبير ليس بأحوط ولهذا لما سئل الإمام

[1] الإمام الفراهي، رسائل الإمام الفراهي، التكميل أصول التأويل، ص 242.

[2] الإمام أبو داؤد، السنن، 279/4.

[3] الإمام ابن ماجه، السنن، 10/1.

[4] جامع بيان العلم وفضله، 2/ 1193.

[5] المرجع السابق.

أحمد بن حنبل رحمه الله عنه فقال: "ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكني أقول: إن السنة تفسّر الكتاب وتبينه".[1]

ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ناقلًا مذهب الإمام الفراهي:

"أما مصطلحات القرآن الكريم كالصلاة والصوم والزكاة والحج والهدي فيفسّرها (الإمام الفراهي) طبقًا للسنة المتواترة مائة في المائة، ولا يجوز عنده أي خلاف لها".[2]

ب - أخبار الأحاد: "وذهب جمهور الأمة أن خبر الواحد ظني، ويجب العمل عليه بشرط أن لا يعارض الكتاب والسنة، وإن تعارض وأمكن الجمع بينهما فيجمع بينهما، وإلا يتوقف في خبر الواحد، والصحابة رضي الله عنهم أنفسهم توقفوا في الحديث عند التعارض، فحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - لم يجعل لها سكنى ولا نفقة ..... قال عمر لا نترك كتاب الله وسنة نبينا - صلّى الله عليه وسلّم - لقول امرأة لا ندرى لعلها حفظت أو نسيت".[3]

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله ما معناه:

الحديث إذا تعارض القرآن والسنة يجب رده، ويحسب أنه ليس قولًا للنبي صلّى الله عليه وسلّم... وخلاصتها أن الحديث يكون صحيحًا إذا يوافق القرآن ولم يخالفه.[4]

أكثر أخبار الأحاد تؤيد الأحكام التي وردت في القرآن الكريم، ولا يوجد فيها المزيد من التفاصيل، وترك الإمام الفراهي مثل هذه الروايات عمومًا لأن فيها تكرارًا فقط، وليس معناه أنه أنكرها، قال الإمام الفراهي:

---

[1] الشاطبي، الموافقات، 4/ 345

[2] الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 18.

[3] الإمام مسلم، صحيح مسلم، 4/ 198

[4] الشاطبي، الموافقات، 33/2

"ولكني أردت ما يكون كالأساس والأم والوسط والحكم ولهذا اقتصرت على ما في القرآن غير جاحد لما تركه كما جمع البخاري في كتابه كلما ثبت عنده من الحديث متفقًا عليه مع ما ترك كثيرًا من الصحاح".[1]

آراء العلماء في خبر الواحد: لا يعمل بخبر الواحد عند الأحناف إلا إذا توفر فيه ثلاثة شروط وهي فيما يلي معنًى:

1. أن لا يخالف أيّ حكم للقرآن الكريم.
2. أن لا يخالف السنة المستفيضة.
3. أن لا يخالف ظاهر النص.[2]

ومن أهم الشروط لقبول خبر الواحد عند الإمام مالك رحمه الله وهو أن لا يخالف عمل أهل المدينة.[3]

ونقل ابن القاسم وابن وهب أنهما رأيا الإمام مالك مبينًا عمل أهل المدينة أكثر من الحديث، ووصله الحديث بواسطة الآخرين، ويقول إننا نعلمه ولكن العمل ليس عليه.[4]

وقال الإمام مالك: رأيت محمد بن أبي بكر بن عمر بن حزم، وكان قاضيًا على المدينة، وكان أخوه محدثًا ثقة وصادقًا، إذا حكم محمد بن حزم يخالف الحديث يسأله عبد الله عنه ويقول: ألم يرد فيه حديث فلان؟ فيقول: نعم، يقول عبد الله بن حزم لماذا لا تحكم طبقًا له؟ فيجيب أن أهل المدينة لا يعملون على هذا.[5]

[1] الفراهي، مقدمة نظام القرآن، ص 7.

[2] أبو بكر السرخسي، أصول السرخسي، 364/1 –369

[3] قاضي عياض، ترتيب المدارك، 66/1.

[4] نفس المرجع.

[5] نفس المرجع.

وسئل ابن الماجشون: أنتم تروون الحديث ولا تعملون به لماذا؟ فقال: ليعلم الناس أنا لم نتركه لأجل عدم المعرفة.[1]

وقال الإمام عبد الرحمن بن مهدي: عمل أهل المدينة الأسبق أفضل من الحديث.[2]

وكان يجمع عمر بن عبد العزيز رحمه الله الفقهاء ويسألهم عن السنن والقضايا التي كان يعمل بها ويقررها، وأما التي لم يعمل بها ينسخها ولو كا ن من ثقة.[3]

خبر الواحد ومذهب الإمام الفراهي: وقال الشيخ أمين أحسن الإصلاحي:

"كان يرجح مذهب المالكية والأحناف في خبر الواحد، كما لا يهتم الأحناف كثيرًا بخبر الواحد في المسائل العامة الضرورية، والمالكية في عموم عمل الصحابة رضي الله عنهم، كذلك الإمام الفراهي لا يهتم كثيرًا بأخبار الأحاد في الصور المذكورة".[4]

مكانة الروايات التفسيرية العامة: تم التحريف والوضع في الروايات كثيرًا، ومع ذلك كان الفضل الخاص من الله تعالى على هذه الأمة لأن الفقهاء العظام وضعوا الأصول والمبادئ التوجيهية كشفت عن ستار جميع المكائد والمحاولات للوضع، وتم الوضع في كل شعبة من شعب الدين، وخصوصًا تأثر به باب التفسير كثيرًا، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي".[5]

وصرحه ابن تيمية رحمه الله أيضًا في رسالته "مقدمة أصول التفسير" بقوله: "والموضوعات في كتب التفسير كثيرة"،[6] ونقل قول الإمام أحمد بن جنبل رحمه الله المذكور أعلاه.

---

[1] نفس المرجع

[2] نفس المرجع.

[3] نفس المرجع.

[4] الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، مقدمة تفسير نظام القرآن (الترجمة الأردية)، ص 18.

[5] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 56/2

[6] ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير ص 31

وقال ابن كثير رحمه الله: أكثر ما وصل من التفسير بالمأثور إلى الرواة عن الزنادقة اليهود، والإيرانيين، والمسلمين الجدد من أهل الكتاب.[1]

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لم يثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في باب التفسير إلا مائة حديث تقريبًا.[2]

وسأل الإمام عبد الرحمن بن مهدي ميسرة بن عبد ربه كيف وصلت إليك الأحاديث الكثيرة في فضائل السور، فقال: أنا وضعتها ترغيبًا.[3]

وكذلك سئل نوح بن أبي مريم فقال: "لما رأيت اشتغال الناس الناس بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن إسحاق، وأنهم أعرضوا عن القرآن، وضعت هذه الأحاديث حسبة لله تعالى".[4]

وقال الإمام الفراهي رحمه الله:

"لا نعتمد على دليل ضعيف في صرف القرآن عن ظاهره، ونجعل الظاهر حجة".[5]

وقال في موضع: بيان المعنى خلافًا لظاهر القرآن بانتهاك أصول التفسير هو تمهيد الطريق للتحريف.[6]

وما قال الإمام الفراهي هنا فمن ينكر وزنه، وكانت رغبتي أن أقدم أنموذج تفسير الفرقة الباطلة ليعلم أن توجيهًا لخلاف ظاهر القرآن الكريم يظهر في أي نتائج خطيرة وضالة ولكني تركته خوفًا للتطويل في هذا الوقت، ولأن هذا الجانب لا يخفى على أهل العلم.

[1] الزرقاني، مناهل العرفان، ص 13/2.
[2] نفس المرجع، 17/2
[3] ابن حبان، كتاب المجروحين، 64/1.
[4] ابن الجوزي، الموضوعات 8/1.
[5] الفراهي، رسائل الإمام الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص 225.
[6] نفس المرجع.

احتياط السلف في الحديث: وكان من المستحيل لأعداء الإسلام أن يدخلوا أي تعديل في القرآن الكريم، لأن الله تعالى تكفل بحفظه، ولكنهم قد وجدوا السبيل أن ينسبوا الضلالات إلى النبي ﷺ ويروجونها بين المسلمين، ولكن من فضل الله تعالى على هذه الأمة أنه أرشد أئمة الإسلام والمسلمين إلى المبادئ والأصول المتبصرة في الأحاديث المنسوبة إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم منذ البداية، وظهر رجال الفن العظيم لتحقيق الأحاديث الذي ليس له نظير في أي قوم، وبالإضافة إلى ذلك جعل علماء الإسلام والمسلمين المبادئ والأصول التوجيهية والموحدة العالية للرواية والدراية لتحقيق الأحاديث، وأعطاهم الله تعالى لشغلهم في هذا الفن ونضج عقولهم وأفكارهم، وتقواهم الكثيرة، واحتياطهم ملكة سهل بها فصل الأحاديث الصحيحة من مجموعات الصعب والذلول، وهذه الوقائع لمهارتهم وصلت إلى التواتر لا أنقل هذه الوقائع، ولكن هنا أقدم بعض الأقوال التي ستوضح مدى اهتمام السلف بالحديث. ولا يغيب عن بالنا أن ميل بعض الفرق إلى قبول كل شيء باسم الحديث يعد خيانة في دين الله تعالى، ولأن الله تعالى لم يقم هذا الدين على أسس ضعيفة، بل أحكم أصوله إحكامًا بالغًا، ولهذا كانت الطريقة منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم أن لا يقبل حديث إلا إذا لم يعارض القرآن الكريم، ولا السنن المعروفة بين المسلمين.

قال ابن عباس: "إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلًا يقول قال رسول الله - ﷺ - ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف".[1]

عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: قلت للزبير إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما يحدث فلان وفلان قال أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار.[2]

[1] صحيح مسلم (ن)، 12/1.

[2] صحيح البخاري .حسب ترقيم فتح الباري، 1/ 38، برقم: 107.

قال محمد بن سيرين: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم".[1]

وقال الإمام الفراهي رحمه الله ذاكرًا لمثل هذا الاحتياط: "ومنهم من احتاطوا لوهن أسباب الجرح والتعديل ورأوا التشبث بالقرآن أرجح من أخذ الروايات اقتداء بالمجتهدين من الصحابة كعمر وعائشة وابن مسعود ﷺ".[2]

ويقول أيضًا في الأحاديث الضعيفة الواردة في حقيقة رمي الجمار:

"هذا، ولم أجد في صحاح الأخبار ذكرًا من سبب سنة رمي الجمار. فلو ثبت فيه شيء من طريق الخبر لأخذنا به وقرت به العينان، ولكنه لم يثبت. وأمر الدين ليس بهين. وقال رسول الله -ﷺ- كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع."[3][4]

3- التفسير بأقوال الصحابة ﷺ: ومن التفسير بالمأثور التفسير بأقوال الصحابة رضي الله عنهم في المستوى الثالث بعد التفسير بالقرآن، والتفسير بالحديث، ومضى فيه قول العلامة الزركشي والعلامة السيوطي رحمهما الله أن هذا كان من مذاهب العلماء، ومضى قول الإمام افراهي رحمه الله أيضًا أنه يرى التفسير بأقوال الصحابة ﷺ في المستوى الثالث، ويذكر بعض أقواله في السطور الآتية: "لا شك أن فقهاء الصحابة بل عامتهم كانوا أبصر وأعلم بالقرآن لوجوه كثيرة".[5]

وقال في موضع آخر:

"لا شك أن كثيرًا من الصحابة إذا فسّروا القرآن كانوا كالبحر الزاخر والسحاب الهاطل، يلقون على أصحابهم ما كان يملأ صدورهم علمًا حكمة".[6]

[1] صحيح مسلم (ن)، 1/12

[2] رسائل الإمام الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص 232.

[3] صحيح مسلم (ن)، 1/10، برقم: 5.

[4] الفراهي، نظام القرآن، تفسير سورة الفيل، ص 469.

[5] رسائل الإمام الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص 220.

[6] نفس المرجع، ص 221.

الشيخ الفراهي وأمثلة الاستدلال بالأحاديث والآثار

يتم عرض بعض الأمثلة في السطور الآتية التي يتضح بها كيف استفاد الشيخ في التفسير بأخبار الأحاد وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

قال في تفسير سورة الفاتحة ملقيًا الضوء على أهمية هذه السورة في الصلاة:

"هذه سورة الصلاة، بدليل التواتر العملي، والقولي (أي كحديث الخداج، وقسمت الصلاة بيني وبين عبدي وغيرهما)".[1]

وقال في تفسير سورة الذاريات آية "وَبِٱلْأَسْحَارِهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ":[2] "وجاء تصريح ذلك في صحيح الخبر".[3]

ثم قال بعد ذلك:

"وذهب الحسن إلى جعل الواو دليلًا على اتصال الوصفين فإنه قال: "مدوا في الصلاة ونشطوا حتى كان الاستغفار بسحر" وليس ذلك بظاهر المعنى ولكنه إشارة غير بعيدة والله أعلم".[4]

وقال في موضع ملقيًا الضوء على صفة الاعتدال لدين الفطرة:

"وكذلك بين لنا النبي الكريم- ﷺ- أن دين الفطرة والصراط المستقيم هو الاعتدال".[5]

وقال في تفسير سورة التحريم بعد نقل قول ابن عباس رضي الله عنهما في خيانة أزواج نوح ولوط عليهما السلام":

---

[1] الفراهي، تفسير نظام القرآن، تفسير سورة الفاتحة، ص 109.

[2] سورة الذاريات: 18.

[3] الفراهي، تفسير نظام القرآن، تفسير سورة الذاريات، ص 131.

[4] نفس المرجع، ص132.

[5] نفس المرجع، تفسير سورة التحريم، ص 185.

"فهذا كله من استنباطه الحسن، ولم يرو فيه عن النبي- ﷺ- شيئًا".[1]

كما يعلم بهذا أنّ الفراهي رحمه الله كيف يهتم بأقوال الصحابة ﷺ، حيث يعلم أنه كان يشعر بالتفريق بين أقوالهم الاجتهادية والمنقولة دائمًا مقتديًا بآثار الفقهاء والمحدثين.

وقال شارحًا أخلاق النبي- ﷺ- العظيمة:

"أذكر الخبر الذي جاء في الصحيحين عن وزن النبي- صلّى الله عليه وسلّم- بكفة وجميع الناس بكفة حتى إذا رجحهم أعطى الرسالة".[2]

وقال شارحًا وادي محسر:

"ففي الصحاح أن النبي- ﷺ- أفاض من المزدلفة وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة، ولكنه أوضع في وادي محسر".[3]

وقال بعد ذلك:

"ويؤيد ذلك ما رواه الشافعي رحمه الله في كتاب الأم وغيره أن عمر رضي الله عنه كان يحرك في بطن محسر".[4]

وقال في تفسير سورة الكوثر جمعًا الروايات المختلفة:

"ثم إن أمكن التوفيق التام بين القرآن والحديث بأن يقال إن الكوثر الذي أعطاه رسوله في الدنيا هي التي في الحقيقة حوض في الموقف ونهر في الجنة كان ذلك أحسن توفيقًا".[5]

[1] نفس المرجع، ص 207.
[2] نفس المرجع، تفسير سورة عبس، ص 274.
[3] نفس المرجع، تفسير سورة الفيل، ص 471.
[4] نفس المرجع.
[5] نفس المرجع، تفسير سورة الكوثر، ص 490.

وأضاف قائلًا:

"أن النبي- صلّى الله عليه وسلّم- شبّه مساجدنا بالنهر، كما روى البخاري في صحيحه قال- صلّى الله عليه وسلّم- أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا".[21]

وبعد ذلك جمع الروايات المتعددة لشرح الكوثر.

وألقى الإمام الضوء على هذا مفصلًا في تفسير سورة الكافرون، أمره الله بإعلان البراءة والهجرة والحرب، وذكر الروايات المتعددة تأئيدًا له.[3]

وهذه عدة أمثلة اتضح بها أنّ الإمام كيف استفاد من الأخبار والآثار في تفسيره، ورجع مرارًا إلى الأحاديث والأخبار لتوضيح الأشياء المختلفة وسبب النزول، وهل يمكن أن يفهم القرآن بدون سيرته- ﷺ- الذي نزل عليه، دع القرآن كاملًا، وخذ الصلاة فقط، هل تفهم الصلاة من القرآن الكريم إعراضًا عن السنة النبوية؟ ويعلم كل شخص أن أداء الصلوات الخمس بطريقة صحيحة لا يمكن إلا عملًا بمئات الأحاديث، وكذلك يقال عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يعلم إلا سبعة عشر حديثًا، وهذا الاتهام مضحك جدًا، ويعرف به كل شخص أن الإسلام دين عملي، ويفهم في ضوء العمل فقط.

أسباب الاحتياط

ولكن الإمام الفراهي احتاط في جمع الروايات، ومن أسبابه أن الروايات التفسيرية الصحيحة قليلة جدًا، وأبواب التفسير في صحيح مسلم قليلة، والأحاديث الصحيحة التي تتعلق بالتفسير قليلة جدًا في صحيح البخاري أيضًا، وحاول الإمام

[1] صحيح البخاري .حسب ترقيم فتح الباري، 1/ 141، برقم: 528.

[2] الفراهي، نظام القرآن، تفسير سورة الكوثر، ص 492.

[3] الفراهي، نظام القرآن، تفسير سورة الكافرون، ص 553.

البخاري أن يطول هذا الباب شيئًا بالاستنباط حسب عادته، ويساعد في التفسير بخزائن الأحاديث في الأبواب الأخرى غير التفسير، واستفاد العلماء منها دائمًا، ورجع الفراهي رحمه الله أيضًا إليها حسب الضرورة، ومضت الأمثلة على ذلك.

والسبب الثاني أن كثرة الروايات تعوق لفهم القرآن الكريم، ويخفى أسمى الأهداف من التربية وتزكية النفوس، وقال بعض المفسرين:

"ثم إن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سندًا ولا موضوعًا".[1]

ويجدر هنا بالذكر أن الفراهي أيضًا بشر مثل المفسرين الآخرين والعلماء المجتهدين، وكل شخص حرّ أن يختلف عن رأيه على الأسس العلمية، والشيخ نفسه كان يشعر بهذه الظروف، ولهذا أنه لم يضع قط اجتهاده الشخصي في درجة القطع اقتفاء بالسلف، ولم يمض مجتهد في تاريخنا كله لم يختلف أحد عن رأيه، واتفق المحدثون على أن تصحيح الروايات وتضعيفها أمر اجتهادي، وكم من رواية معمول بها عند البعض، ومتروكة عند الآخرين، ولكن هل يصح إنكار حديث لأجل هذه الأمثلة، أو الإعراض عنه، أو اتهام التساهل في هذا الباب، وإن فتح بابه فيخبر من سيكون في مأمن من هذه التهمة من بين الأئمة سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، وإبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، وربيعة الرأي، وعبد الرحمن بن مهدي، سفيان الثوري، وكيع بن الجراح، والأوزاعي، ومالك، وليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، والأئمة المجتهدين الآخرين رحمهم الله، ويمكن أن يختلف مجتهد عن رأي الآخرين في جزء من الوقائع أو في مثال، ولكن طعن أحد كليًا جرأة لا يمكن أن يوجد نظيرها إلا في الفرق الباطلة.

[1] الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 2/ 25.

شهادة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي

يمكن توضيح مذهب الإمام الفراهي بكتاباته أو بتوضيح تلاميذه مباشرة، وأما كتاباته فجاء ذكرها في السطور الماضية، وأما تلاميذه، فتنقل شهادة أشهر تلاميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عليه:

"صحبته ست سنوات، وما فهمت من وجهة نظره في الحديث خلال هذه السنوات، وهي أنه يرى أن السنة هي الأصل الثاني من أصول الدين بعد القرآن الكريم، كما يرى جميع المسلمين أصحاب العقيدة الصحيحة، ولكن كان يحتاط كثيرًا في قبول الروايات مثل العلماء المحققين، وخصوصًا في الروايات التفسيرية، ولا يقبل تلك الروايات التي تخالف صريح القرآن الكريم".[1]

وقال موضحًا أكثر في موضع:

"صحبته ست سنوات كاملة بلياليها ونهارها، ولعل مضى وقت صباحًا ومساء من خلال هذه السنوات لصحبته فيها لم يتح لى الفرصة للاستفسار منه بدون تكلف عن المسائل العلمية والدينية والأدبية والسياسية، ومعرفة رأيه، وتقديم شبهاتي بين يديه، وأن أقول بكل ثقة لم أشعر بهذا الظن قط أن وجهة نظره في الحديث تختلف عن وجهات نظر محققي هذه الأمة فيه".[2]

الشيخ الفراهي واتباع السنة في الحياة العملية

قال الشيخ أمين أحسن الإصلاحي فيه:

"وكان من أشد متبعي السنة في الحياة العملية، وأكثر ما شعرت في صحبته أنه كان يتابع كتاب العلامة ابن القيم "زاد المعاد" كثيرًا، وكان أسلوب فكرته ذا حكمة، وكنت أظنّ قبل لقائه أنه لم ينتقد المسائل الفرعية كثيرًا على الأقلّ،

[1] أمين أحسن الإصلاحي، مقدمة تفسير نظام القرآن (الترجمة الأردية)، ص 18.

[2] نفس المرجع، ص 16.

ولكنه يحاسب نفسه وتلاميذه وأصدقاءه في اتباع السنة على جزئياتها أيضًا، حتى تكون فظاظة مع المتعلمين الجدد في مثل هذه الأمور أحيانًا".[1]

مثال الحسبة على السنة

نقل الشيخ أمين أحسن الإصلاحي قصته، "اعترض الإمام الفراهي علي حينًا من الأحيان لأجل سروالي كان أسفل الكعبين، وكنت أظن مثل هذه الاعتراضات في ذاك الزمن من الانتقادات، فشعرت بهذا الاعتراض من مثل الإمام الحكيم عيبًا، وأظهرت شعوري هذا عند الإمام، فطال الكلام، وذكر الأحاديث الواردة فيه، وقدّمت وجهة نظري في هذه الأحاديث بكل شدة، ولكن الشيخ أجاب وقال كلمة توجيهية دخلت في قلبي، فقلت على الفور إن كان كذلك فأنا راض عنه بشرح الصدر أنت تقطع سروالي بقدر ما زاد حد الشرع، والشيخ طلب المقراض ضاحكًا على الفور وقطع سروالي بقدر ما كان أسفل الكعبين".[2]

ونقل أيضًا مثل هذه القصة التي تتعلق باللحية يعلم بها أنّ الإمام الفراهي كيف يهتم بالسنة؟[3]

وقال الشيخ عبد الماجد الدريابادي مبينًا اهتمام الإمام الفراهي بتقوى الله واتباع السنة:

"كان تقوى الشيخ الفراهي وعبادته متميزتين، وما رأيت ما كان يهتم بالصلاة في أول وقتها إلا في شخصية واحدة، وهي كانت شخصية أكبر الإله بادي، وليس الشيخ نشيطًا في الصلاة فحسب، بل الناس أن يعتادوا على الصلاة بهيبته، والناس يصلون كثيرًا في حرم دار المصنفين مادام يقيم الشيخ فيه".[4]

[1] نفس المرجع، ص 16 –17.

[2] نفس المرجع، ص 17.

[3] نفس المرجع.

[4] عبد الماجد الدريابادي، المعاصرون، ص 122.

خلاصة الكلام

هذه النزعة خطيرة جدًا أن نتهم سلفنا بدلًا أن نقدر إحسانهم ومآثرهم وجهودهم، ولم تكن مؤلفات الإمام الفراهي رحمه الله معدومة، وهناك يوجد تلاميذه، وتلاميذ تلاميذه يمكن التحقيق منهم، وترويج كل صعب وذلول من الحديث في الدين فتنة عظيمة، كما أن إنكار الحديث فتنة، وكان مذهب أهل السنة والجماعة وسطية دائمًا، وكان السلف قد احتاطوا في أخبار الأحاد. وهل الاحتياط في قبول خبر الواحد يدل على إنكار الحديث؟ وهل لم يعلّمنا الشارع نفسه تعليم الاحتياط؟ وهل لم يحتط الخلفاء الراشدون والصحابة المجتهدون في الأحاديث؟ والفراهي يتوقف عن خبر الواحد فقط في هذا الزمن إذا تعارض القرآن الكريم أو السنة، هل هذا بدعة في الدين؟ وهل تعارض القرآن ليس دليلًا على ضعف الحديث؟ وهل كانت طريقة السلف عملًا بكل حديث يوجد في خزائن الأحاديث؟ ألم ينقل الإمام الترمذي مذاهب السلف في كتابه مرارًا منهم من عمل بأي حديث؟ ألم يقل الإمام الترمذي نفسه أن الحديثين يوجدان في كتابه لم يعمل أحد بهما؟ من قال من الأئمة أن أصول الأئمة والمحدثين في تصحيح الحديث وتضعيفه تحل مكانة النص القطعي؟ وهل لم يختلف الأئمة في تلك الأصول والنقد في الرجال اختلافًا شديدًا؟ انظروا إلى مراجع الجرح والتعديل، ألم يُر كبار الأئمة في صفوف المجروحين؟ ألم يكن مذهب جمهور الأمة أنّ خبر الواحد ظني؟ اعدلوا شيئًا من أين الاتهام على أساس الظن يعتبر دفاعًا عن السنة؟

وكـم مـن عائـبٍ قـولًا صـحيحًا وآفتـه مـن الفهـم السـقيم

إذا لـم تـر الهـلال فسـلّم لأنـاس رأوه بالأبصـار

المصادروالمراجع

1. ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الموضوعات، محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1966م.
2. ابن تمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1980م.
3. ابن عبد البر، يوسف بن عبد البر النمري، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398ھ.
4. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي .بيروت. د.ت.
5. الإصلاحي، أمين أحسن بن غلام مرتضى بن وزير علي الإصلاحي، مقدمة نظام القرآن، (الترجمة الأردية)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم كره، الهند، 1990م.
6. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى،1987م.
7. الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
8. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبدالله أبو عبدالله، مستدرك الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م.
9. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر،البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1957م.

10. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، أصول السرخسي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
11. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
12. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الموافقات، دراسة وتحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1997م.
13. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، الرسالة، مكتبه الحلبي، مصر، د.ت.
14. الفراهي، التكميل أصول التأويل (في مجموعة رسائله)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يو-بي، الهند، الطبعة الرابعة، 2013م.
15. الفراهي، عبد الحميد بن عبد الكريم، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالقرقان، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يو-بي، الهند، 2008م.
16. الفراهي، عبد الحميد بن عبدالكريم، مقدمة تفسر نظام القرآن، مطبعة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يو-بي، الهند، 1357هـ.
17. القزويني، أبو عبدالله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، د.ت.
18. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمّى بصحيح مسلم، دار الجيل، بيروت ودار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
19. النسائي، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب، سنن النسائي الكبرى، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري, سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1991م.

ISSN: 2321-7928

مباحث السيرة النبوية في مؤلفات الفراهي

- البروفيسور أبو سفيان الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: أبو سعد الأعظمي[2]

مصادر سيرة الرسول (عليه أفضل الصلوات والتسليم) ثلاثة، وهي القرآن الكريم والأحاديث النبوية وآثار الصحابة رضي الله عنهم. وإضافة إلى ذلك جاء وصفه في الصحف السماوية إلا أنّ القرآن الكريم أول مصدر وأوثقه لهذه السيرة العطرة. إنه يعرفنا بشخصية النبي ﷺ ويدعو العرب إلى فهمها والتدبر في خلق صاحبها الذي يفضل البشر كلهم بأخلاقه وتحمّل مشاقّ الدعوة، وينفرد في هذه المحامد كلها دون الآخرين، ولا يمكن لأحد أن يتحلّى بجميع خصاله إلى يوم تقوم الساعة. أفاض الفراهي في بيان عظمة النبي ﷺ وتميزه عن الآخرين بكلمات تالية:

"إن الله تعالى بعث نبينا على أحسن الخلق داعيًا إلى مكارم الأخلاق، كما قال الله تعالى: "إنك لعلى خلق عظيم". وقال النبي ﷺ: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وجماع المكارم الجود وصلة الرحم وإعانة الضعفاء وقد نشأت العرب على هذه الأخلاق، فلما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد والمواساة لم يخالفه الشرفاء إلا من جهة إشراكهم بالله وإنكارهم بالبعث بعد الموت".[3]

ولما واجه رؤساء العرب هذا التحدي، حاولوا خفض هذا الصوت الجديد ودعوا الشبان إلى اللغو والتصفيق عند تلاوة القرآن الكريم. يقول الله تعالى: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ" وذلك لكي يسد طرق

[1] بروفيسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

[2] باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

[3] نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 579.

تعليمه وتأثيره في الناس، ولكن محاولتهم ذهبت على أدراج الرياح وانهزم رؤساء العرب انهزامًا شديدًا وفتح المسلمون مكة المكرمة وتولوا بيت الله. وأصبح النبي ﷺ حامل مفتاح الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس مباركًا ومثابة لهم. ويتبادر من كتاب الفراهي النادر "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" ومن "رسائل شبلي" أن الفراهي قد سلّط الضوء على حقيقة بيت الله بأسلوب جدير بالإشادة والتقدير.

يقول الإمام الفراهي في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" في الاستدلال الثالث عشر بما جاء في القرآن على سبيل إبطال ما افترت اليهود في أمر إسماعيل عليه السلام وهو يفسّر قوله تعالى في سورة آل عمران: "إن أول بيت وضع للناس ببكة مباركًا وهدى للعالمين... وما الله بغافل عما تعملون" الآية 96-97. ويكشف لما تتضمنه من احتجاج ورد على أهل الكتاب الذين أبهموا مكان البيت الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمكة. ثم ذكر البلد باسم "بكة" بمعنى البلدة، كما سمّاه إبراهيم عليه السلام، ودلّ به على تحريفهم في مزمور 84 حيث جعلوه وادي البكاء.[1] وهذا الاسم جاء في الصحف السماوية أيضًا. ويقول الفراهي في صدد اشتقاق مكة في مفردات القرآن:

"اختلفوا في اشتقاق مكة، ولا شك أنها مبدلة من "بكة" لمجيئها في القرآن. وهكذا كان اسمها عند حلول إسماعيل عليه السلام وذرية إبراهيم عليه السلام في واديها. وهذه الكلمة معناها المستعمرة، كما ترى في لفظ بعلبك. وهذه الكلمة هي التي تبدلت في العربية "بقعة" وأصلها من الفارسية. وهي "بغ" كما ترى في بغداد ومنها كلمة "باغ" للبستان.[2] ويرى بعض الناس أن "بغ" هي آلهة يعبدها الناس ويرى أنه رازق فلذلك ألحق كلمة "داد" في آخرها.[3]

[1] مفردات القرآن، ص317

[2] المصدر نفسه، ص317-318

[3] راجع للتفصيل: البرامكة، 1/122-124

ويرى مثل هذا الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في صدد "بعل" أنه اسم آلهة كان يعبدها قوم إلياس. ويوجد نظير أنّ مدينة بعلبك تنتمي إلى هذه الآلهة وذلك لأن "بك" مخفف من "بكة" معناها البلدة.[1] وتبدل بعلبك فيما بعد بالبقعة وهي كلمة فارسية.[2]

وأوضح القرآن الكريم عظمة بيت الله بعد أن سمّاها "الكوثر". ولماذا سمي بيت الله "الكوثر"، ألقى الفراهي الضوء على هذا وهو موثق بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة. واختلف المفسرون في تعيين كلمة "الكوثر" وأرادوا بها القرآن والحكمة والإسلام والنبوة والحوض والنهر في الجنة وغيرها. وانفرد الفراهي في تعيينه من المفسرين ويرى أنه بيت الله الذي يعم نفعه ويتمتع العالم ببركاته. ولعل من المناسب أن ننقل فيما يلي ما قال الإمام الفراهي في تعيين هذه الكلمة:

"قد ظهر مما سبق أن السلف رحمهم الله لم يختلفوا في كوثر الآخرة. ولكن حملوا اللفظ على العموم، وراعوا صيغة الماضي. فذكروا ما يدخل في مدلول هذا الاسم، ليكون اللفظ عامًا وسيعًا كوثرًا في دلالته. ولذلك ساغ للمتأخرين من المفسرين التماس أمور أخر غير ما روي عن السلف. فلو كان القول فيه بدعة وضلالة لسكتوا، ولسكت السلف ولم يختلفوا.

فإن التمست قولًا يجعل الكوثرين واحدًا لم أرني مخالفًا للسلف، كما أني لا أراهم مخالفين بعضهم لبعض، بيد أنهم جعلوا الكوثر عامًا، فحملوه على حوض أو نهر في الجنة، وعلى غيره مما فيه الخير العظيم من القرآن والحكمة والإسلام والنبوة، من غير رعاية مناسبة بالحوض أو النهر. وأما أنا فأحمله على ما هو أشبه شيء بحوض أو نهر وصفه النبي ﷺ، وكشف له في ليلة المعراج. فإن الله تعالى أراه

[1] تدبر قرآن، 145/2. وراجع للتفصيل أيضًا: قاموس ألفاظ واصطلاحات قرآن، ص55-57

[2] راجع للتفصيل: حواشي مفردات القرآن، ص318

فيه حقائق أمور أخر وروحانيتها من الأمور التي في الدنيا، فكذلك أراه روحانية الكوثر الذي أعطاه في الدنيا.

وكان النبي ﷺ ربما يصرح بما يكشف له، كما قال في أمر سورتي البقرة وآل عمران أنهما تأتيان كغمامتين، وأن الدنيا تأتي كعجوز شمطاء، وأن الموت يأتي في صورة كبش. وربما يكتفي بالإشارة لكي يتفكروا ويستنبطوا، فيكون تعليمًا وتربية لعقولهم. فإن لم يبلغنا التصريح منه عليه الصلاة بأن الكعبة تكون يوم القيامة حوضًا كوثرًا فقد دلنا بإشارات، وقد رغبنا في التفكر والتوسم.

والآن نذكر ما كشف لنا من اللوامع الدالة على ما ذكرنا.

الأولى: أن النفوس لها شوق إلى الرب، ولا تطمئن ببعدها عنه. وهذه الفطرة منشأ الديانات في الناس، حتى لا تخلو عنها أمة. وما يعبر عن هذا الشوق الروحاني غير "العطش". وكثر في الزبور هذا التمثيل. فإن صح ذلك فالموحدون عند الحج لأشبه شيء بالعطاش المجتمعين عند حوض بعد مقاساة الظمأ الشديد. فالكعبة لهم في الدنيا هي كالحوض الكوثر الذي يردونه في المحشر.

والثانية: أن النبي ﷺ شبه مساجدنا بالنهر، كما روى البخاري في صحيحه. قال ﷺ: "أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا...". فهذا تمثيل من جهة أخرى للماء. فإن الماء كما أنه رواء فكذلك هو طهور. ولا شك أن مورد صلواتنا هذا البيت الذي بمكة، فكأن له جداول في كل مكان يصلون فيه.

والثالثة: أنه كما تستعلن كثرة هذه الأمة على الأمم عند الكعبة فكذلك تكون عند الحوض. ولا شيء أدل على كثرة هذه الأمة من اجتماعهم في موضع واحد. وإن هذا الاجتماع لأدل على كثرتهم لعلم الناس بأن هذه الجماعة إنما هي قطرة من بحر أمته الممتد على بسيط الأرض. فكما تتضح زيادة هذه الأمة على أمم النبيين الآخرين في القيامة عند اجتماعهم على الحوض، فكذلك ترى كثرتهم حول الكعبة في الموسم. فاسم "الكوثر" أظهر مطابقة بهما.

والرابعة: أن النبي ﷺ أخبر أنه يعرف أمته على الحوض بآثار الوضوء. ففيه إشارة إلى أن الذين يردون هذا البيت بقلوبهم هم الذين يردون في الآخرة ذلك الحوض الذي هو حقيقة هذا البيت.

والخامسة: أن الله تعالى قد جعل استخلاص الكعبة ينبوعًا للكثرة. فدخلوا في دين الله أفواجًا بعد الحج الأكبر.

والسادسة: أن الله تعالى سمّى مسجد مكة مباركًا، حيث قال: "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين" وجعل الله لهذا البيت من البركة ما عم فيضه جميع العرب بل جميع العالم، كما وعد إبراهيم عليه السلام. فظهرت بركته في إسماعيل عليه السلام أكثر من بركة إسحاق عليه السلام، كما مر في تفسير سورة الفيل. ولا يخفى أن كل هذه البركات من هذا البيت، ومن الصلاة والنحر. وأما تسمية القرآن بالمبارك، فمن جهة كونه كالمطر النازل من السماء، فسمّاه "مباركًا" كما سمّى المطر "مباركًا". فكما أن المطر يحيي الأرض، فكذلك القرآن يحيي القلوب. فتسمية القرآن بالمبارك لا تجد فيها ما تشبهه بالحوض. والبلاغة تنكر هذا التشبيه لعلو مكانة القرآن وسعته التي لا نهاية لها.

والسابعة: أن هذه السورة نزلت يوم صلح الحديبية الذي فتح باب الوصول إلى بيت الله والحج والصلاة والنحر وظهور الإسلام وكثرته، حتى سماه الله تعالى "فتحًا مبينًا". ونتكلم على زمان نزولها في الفصل الرابع عشر ببعض البسط إن شاء الله.

والثامنة: أن النبي ﷺ أخبر عن موضع طرف من ذلك الحوض، فأشار إلى الباقي، كما روى البخاري في صحيحه. قال ﷺ: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي". فيستنبط من ذلك أن هذه الأرض المباركة التي يتردد فيها الحجاج هي التي تصير حوضه الكوثر الذي أخبر عنه، ومنبعه الكعبة.

وإلى هذا أرى إشارة في قوله عليه السلام، كما روى البخاري في صحيحه –**وهي التاسعة**- أن ﷺ خرج يومًا فصلّى على أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال:

"إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها".

"الفرط": من يتقدم القوم إلى الماء ليهيئ لهم الأرسان والدلاء، ويملأ لهم الحوض. و"شهيد عليكم" أي يعرفهم ويشهد على كونهم من أمته، فيكون ذلك شفاعة لهم. هذا بيان ما يقع في الآخرة. ثم أشار إلى أن ظاهر ذلك الحوض بين يديه، فإن منبره على حوضه، كما مر آنفًا. وما ذكر من إعطاء مفاتيح الأرض فذلك ما أنجزه الله تعالى، فإن فتح مكة كان مفتاحًا لفتح الأرض وخزائنها.

والعاشرة: أنه عليه السلام أخبر أن طول حوضه ما بين مكة والمدينة. فأشار إشارة لطيفة إلى المطابقة التي بين أرض الحرم وحوضه. فإن قيل: فهلا ذكر ما أراد بالتصريح؟ قلنا: إنما اختار هذا الاسم لكثرة دلالته، وليتفكروا. فدل على كثرة الأمة، وفتح مكة، وكثرة اجتماعهم في الحج، وفي الموقف على حوضه. وإنما ذكرنا هذه الأمارات تمهيدًا وتأييدًا لما دل عليه نظم الآيات، كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى.

هذا، ثم التدبر في هيئة الحوض الكوثر يدلنا على ما ذكرنا من كون الكوثر الأخروي صورة روحانية للكعبة وما حولها.[1]

وتفسير الفراهي هذا يوضح أمامنا نكتة جديدة للسيرة النبوية. ولعله من الضروري أن نصرح هناك أن العلامة شبلي النعماني وسيد سليمان الندوي قد أكثرا الاستفادة من الفراهي في ترتيب سيرة النبي وتقييمها. وتدل عليه رسائل شبلي النعماني. وكذلك استفسر العلامة شبلي الفراهي في كثير من المباحث القرآنية من أمثال الصفا والمروة ورمي الجمار وحج بيت الله وغيرها من المسائل الأخرى الواردة في سيرة النبي. وللفراهي إسهامات غير قليلة في إبراز جوانب عديدة في سيرة النبي التي ألّفها شبلي النعماني. وقد أشار إليه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي هكذا:

[1] تفسير سورة الكوثر (منهج جديد ورؤية جديدة)، ص 16-20

"أما البحث القيم الذي كتبه شبلي حول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في كتابه سيرة النبي، فكله مأخوذ من هذه الرسالة القيمة للفراهي المسماة بـ"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح". وقد نقلتها إلى الأردية أيضًا".[1]

وتناول كاتب هذه السطور هذا الجانب في إحدى مقالاته كما يلي:

"إن العلامة شبلي النعماني كان يراجع الإمام الفراهي خلال كتاباته وتحقيقاته بما أنه كان يعتمد على سعة اطلاعه ورسوخه في العلم وشغفه بالقرآن الكريم ومعرفته باللغة العبرانية وإمعانه في الصحف السماوية. ويزخر كتابه الفذ المسمى بـ"سيرة النبي" بتوضيحات للفراهي وخاصة في تلك القاضايا التي تتعلق بعلوم القرآن. لأن الفراهي يتصف ببالغ الإمعان ودقة النظر في المباحث القرآنية. فيوجد في رسائل شبلي سبع رسائل تتعلق بمبحث الذبيح، سأل فيها عن أسئلة هامة ونكات مهمة تبرهن على الذبح الحقيقي. وكتب إليه رسالتين لإرسال نتائج بحثه في تعيين موضع الذبح في ضوء الصحف السماوية. ورسالتين لإرسال بحثه عن مزاعم أهل الكتاب حول مسكن إسماعيل كما كتب إليه ثلاث رسائل سأل فيها عن الاسم الحقيقي لمكة المكرمة والمدينة المنورة، وعن التحريفات التي قام بها أهل الكتاب في هذا الأمر. وعندما ألقى شبلي الضوء بالإيجاز على أزواج النبي ﷺ في المجلد الأول من سيرة النبي وعبر آراءه عنها وكانت بين عينيه هذه الدسائس الضارة، والخيانات العلمية المفتراة والمخترعة من قبل المستشرقين، فكتب إلى الفراهي ثلاث رسائل حول هذا الموضوع واستفسر فيها عن أشياء كثيرة. وتوجد في رسائل شبلي اثنتان وعشرين رسالة إلى الإمام الفراهي، وردت فيها بحوث حول سيرة النبي وأثير فيها موضوعات هامة من المفردات القرآنية والأماكن وغيرها. وفيها بعض من المباحث القيمة التي لا يمكن تكميلها بدون استفسار الإمام الفراهي".[2]

[1] تفسير نظام القرآن، ص24

[2] مولانا حميد الدين الفراهي- حيات وأفكار، ص451-452

وتعج تصانيفه من أمثال "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" و"إحكام الأصول بأحكام الرسول" و"سلسلة أنساب النبي ﷺ" وغيرها بجوانب عديدة من السيرة النبوية، وهي تتنزه من التحريفات والأحاديث الموضوعة. فإن الفراهي كان يريد أن يرتب السيرة النبوية على أساس القرآن الكريم، وأن يقوم بتحليل الروايات التي تتعلق بالسيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم. وتزخر الروايات باسم السيرة النبوية وفيها أحاديث غير قليلة تشوه حقيقة السيرة النبوية وربما يثير الشك في كون النبي ﷺ بشرًا، مع أن القرآن الكريم يعلن بكل وضوح "إنما أنا بشر مثلكم". وقدر السير سيد على تقديم منهج موثق غير مشكوك فيه. نرى جوانب عديدة للسيرة النبوية في "تبيين الكلام" وفي "بشرى" لعنايت رسول وفي "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" للإمام الفراهي. وفي العصر الأخير أتم خالد مسعود أمنية الفراهي بتأليف "حيات رسول أمي" وكتب في ديباجته أن الآية الكريمة "قد أنزل الله إليكم ذكرًا. رسولًا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور" (الطلاق: 10-11) تقدم الرسول كذكر بدل القرآن الكريم. فكأن القرآن والرسول كلاهما شيء واحد، أحدهما في صورة الألفاظ والثاني في صورة الجسم.[1]

وتفاسير آيات غير قليلة في تفسير الإمام الفراهي المسمى بـ"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" تحتل أهمية كبيرة في توضيحات السيرة النبوية العطرة. فمثلًا نرى أن معظم المفسرين ترجم كلمة "ضالًا" الواردة في سورة الضحى "ووجدك ضالًا فهدى" وفيه تشويه للنبي ﷺ، وذلك بما أنه كان صادقًا أمينًا قبل النبوة أيضًا. وفسّر الفراهي هذه الكلمة هكذا: "الضال ههنا من يلتمس الطريق لا من يتغافل عنها والأولى ممدوح والثاني مذموم".[2] والكلمة تدل على هذا. وفي الواقع

[1] حيات رسول أمي، ص2

[2] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 463/2

يعني بهذه الكلمة تصوير اضطراب النبي ﷺ وقلقه وهيمانه، فكان النبي ﷺ يهيم في البحث عن جادة الحق والنبوة التي بها يخرج قومه من الظلمات إلى النور. وهذا القلق لا يزال يطير نومه كما صوّر القرآن الكريم: "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين" وعبّر القرآن الكريم عن هذا القلق والاكتئاب والاضطراب بـ "ضالًا". واستعمل الفراهي لهذا التعبير كلمة مناسبة، ثم أوضح ونقح الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وترجمه "وجدناك باحثًا عن جادة الحق فهدناه". يشمل فيه رعاية حالته الخاصة واللغة كلتيهما. وفسّر الشيخ الإصلاحي تفسيره هكذا:

"مما لا شك فيه أن العادات والتقاليد التي توارثها النبي ﷺ عن آبائه، لا تكاد تطمئن بها فطرته السليمة وحتى لثانية. وليس هناك أي ضياء آخر ينور قلبه ويسكن خاطره. وأما المتبعون للأديان السماوية الذين كانوا حوله، فبيّنت سورة البقرة وآل عمران والسور المدنية الأخرى أحوالهم السيئة وعقائدهم وأعمالهم القبيحة إلى أنه لا يمكن لباحث جادة الحق أن يهدي بها. فعانى النبي ﷺ من توتر ذهني بذلك الوضع، وأعرب عنه القرآن بقوله "ووجدك ضالًا". فكلمة "ضالّ" لا تعني بها البعيد عن جادة الحق بل هو تعبير عن باحث جادة الحق. وذلك لما أن الأنبياء ولدوا على فطرة سليمة قبل البعثة ولا ينحرف عن حقائق الفطرة في بداية حياته أيضًا. وإنما الفطرة تهدينا إلى حقائق ثابتة من العقائد والأعمال التي لا بد منها. ولا تستطيع أن تشرح جميع العقائد ومقتضياتها ولا تحيط بالأعمال الحسنة والأخلاق الفاضلة في إطارها. ولذلك يحتاج رجل مع كونه على الفطرة التي فطر الناس عليها إلى المعرفة بصفات الله تعالى ومقتضياتها ومتطلباتها مع أن قلبه يشهد ويصدق وجود الله تعالى.

وما هي الحقوق التي تؤول إلى العباد وكيف يؤدونه؟ كيف ننظم حياتنا؟ لكي تكون وفقًا لما يحب الله ويرضى في جميع أبعادها. وإلى متى هذه الأسئلة تبقى، لا يستطيع الإنسان أن يحصل على انشراح حقيقي ويوطد علاقته بالله. وهذه الأسئلة هي

التي كانت قد استولت على قلب النبي ﷺ طول هذه الفترة وتشير إليه كلمة "ووجدك ضالًا" ويبدو أن هذه الحالة ليست حالة الضلال ولا يمكن أن نعبر عنها بالهداية، بل هي في الواقع بحث عن جادة الحق والصراط المستقيم. كأنه رجل يقف على الشارع العام ولا يستطيع أن يعين منزله. وما زال النبي ﷺ يستغرق في حل هذه الاضطرابات النفسية في خلاء غار حراء قبل البعثة".[1]

وترجم الشيخ مولانا أحمد رضا خان البريلوي رحمه الله كلمة "ضالًا" إلى "خودرفته" وهي ترجمة ملائمة للغاية. ولكن ترجمة الآية "اور تمہین اپنی محبت میں خود رفتہ پایا تو اپنی طرف راہ دی" أي "ووجدك ضالًا في حبه فهداك إليه" لا يناسب في ضوء نظم القرآن الكريم. وذلك بما أن هذا الضلال ليس ضلال الحب بل هو ضلال حصول الهداية والبحث عنه. ونقل الشيخ البريلوي رحمه الله رؤية المتصوفين في توضيح هذا التفسير أيضًا فقال: "يعني بالضال الجذب وبالهداية السلوك".[2] ولا علاقة لهذا التفسير الصوفي بالقرآن الكريم أيضًا. وأما خمسة معاني التي أشار إليها الشيخ البريلوي خلال دراسة كلمة "الضال" لغة فهي جديرة بالإشادة والتقدير. وما أحسن لو نقوم بالاستفادة من "كنز الإيمان" في المباحث اللغوية. ولكن مما يؤسف أن فئة كبيرة من الأوساط العلمية لا تعتني بها. ومن المناسب أن يستفيد الباحث من جميع مذاهب الفكر والرأي.

وجاء ذكر صفات عديدة لنبينا ﷺ في القرآن الكريم ومنها صفة "شهيد". ويرى الإمام الفراهي أن الشهيد هو الذي يؤذن بالكلام، وبواسطته يغفر لمن شاء الله.[3] فليس لأحد أن يبدأ بالكلام. وجاء في إحدى الروايات " عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: اقرأ علي القرآن. قلت يا رسول الله، كيف أقرء عليك وإنما أنزل

[1] تدبر قرآن، 416/9

[2] كنز الإيمان، ص975

[3] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 126/1

عليك. قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري". قال: فافتتحت سورة النساء، فقرأت عليه، فلما بلغت: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا"، قال: نظرت إليه وعيناه تذرفان".[1]

وبيّن الفراهي في موضع من تعليقاته على القرآن الكريم أن الشهيد كالرسول، ولذلك سمّى الله الأنبياء شهداء. ثم الشهيد هو الرقيب والمحافظ كما ترى في آخر سورة المائدة.[2]

ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي:

"الشهيد يعني زعيم القوم ولسانهم الذي يشهد المشاهد من جانبهم ويدافع عنهم، يمكن أن يكون هذا الشهيد من الناس كما يمكن أن يكون من الجن كما يعتقد العرب وقد كان الشعراء والخطباء يتمتعون من درجة كبرى في العصر الجاهلي وذلك لأن هؤلاء كانوا يدافعون عن عزتهم القومية في كل مشهد من المشاهد المهمة. وكان مشركو العرب يعتقدون أن كل شاعر يعضده جنّ يلهمه الشعر وعلى هذا فقد ظنوا عن القرآن أنه نوع من ذلك الإلهام المعجز".[3]

وتناول الإمام جوانب عديدة للسيرة النبوية في مؤلفاته المختلفة. ومن أهم موضوعات السيرة النبوية "ترتيب قرآن". وللفراهي بحث دقيق عن هذا الموضوع. ويرى أن ترتيب القرآن الكريم توقيفي. ويقول خلال تفسيره عن الآية "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" أنه يصون عن التحريفات وأي نوع من النقص والزيادة. ولعله من المناسب أن ننقل هذا البحث فيما يلي:

[1] مسند أحمد، 433/1، رقم الحديث، 4118

[2] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 148/1

[3] تدبر قرآن، 138/1

"اعلم أن الله تعالى وعد حفظ القرآن الكريم مرارًا إجمالًا وتفصيلًا. فقال تعالى: "وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ" (حم السجدة:41-42) أي أنه مصون عن الزيادة. وقال تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون". وهذا قول في غاية الصراحة بنفي النقصان والتغير مع الدلالة على نفي الزيادة أيضًا. فإن كل واحد من هذه الثلاث يخالف حفظ الكلام وهذا أمر ظاهر.

وأما ما اشتهر أن الإمامية يقولون بذهاب بعض القرآن فخلاف تصريح علمائهم كالسيد مرتضى وشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي وأبي علي الطبرسي صاحب "مجمع البيان" ومحمد بن علي بن بابويه القمي الذي قال: "اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه هو ما بين الدفتين وما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك. ومن نسب إلينا أنا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب". وأما رواياتهم فمثل رواياتنا لا يعتمد عليها لضعفها. قال السيد المرتضى: "إن من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية ولا يعتد بخلافهم، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخبارًا ضعيفة ظنوا صحتها. لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته. وللسيد المرتضى دلائل أخرى تركناها. فإنا بسطنا الكلام في كتابنا "تاريخ القرآن" وإنما نذكر هنا ما يختص بهذه السورة.

فلا يخفى عليك أن قوله تعالى: "إنا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه" (القيامة:17-19) يحتوي على ثلاثة أمور:

الأول: أن القرآن يجمع في عهد النبي ﷺ ويقرأ عليه بنسق واحد. فإنه لو أنجز هذا الوعد بعد عهد النبي لم يأمره باتباعه وذلك قوله: "فإذا قرأناه فاتبع قرآنه".

والثاني: أن النبي مأمور بالقراءة حسب هذه القراءة الثانية التي تكون بعد الجمع. وليس للنبي أن يلقي عليه شيء من الوحي ولا يبلغه الأمة عقلًا. ولما أمره الله تعالى في قوله: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ"

(المائدة: 67). وقوله تعالى "ما أنزل إليك" عام لا يخصه العقل. فكل ما أنزل إلى الرسول من أمر الرسالة لا بد أن يبلغه الأمة ونظم القرآن وسورته منه. فكيف يترك تبليغه وهو مما أنزل إليه فلا شك في أن النبي ﷺ أمر الأمة قراءة السورة بنسق آياتها.

والثالث: أن بعد هذا الجمع والترتيب بيّن الله ما شاء بيانه من التعميم والتخصيص والتكميل والتخفيف. وقد علمنا وقوع هذه الأمور الثلاث. فإن النبي ﷺ كان يقرأ عليهم سورة القرآن كامله. وهذا لا يكون إلا بعد أن قرئ عليه بنسق خاص فأخذوها منه. وكان يأمرهم بوضع الآيات بمحلها اللائق بها ثم بعد ذلك إذا أنزلت عليه آيات مبينة ضمها بالقرآن".[1]

وشرح الفراهي وفسّر كلمات عديدة في كتابه الشهير "مفردات القرآن". نونس فيها النور المبين للسيرة النبوية. يقول عن خاتم النبيين: "اعلم أن النبوة قد ختمت بمحمد ﷺ".[2] ولذلك جاء في القرآن: "مبشرًا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد". فالنبوة قد ختمت بالمسيح في بني إسرائيل، ولكن بقيت لبني إسماعيل ثم ختمت بمحمد للأبد. ولذلك قال النبي ﷺ: "لا يكون بعدي إلا الرؤيا الصالحة".[3]

وألقى الفراهي الضوء على مدينة النبي ﷺ وقال إن اسمها القديم كان يثرب. يقول سلامة بن جندل:

ألا هل أتى أفناء خندف كلها وعيلان إذ هم الخميسين يثرب[4]

وإضافة إلى ذلك نقل الفراهي أشعار عبيد بن الأبرص للاستدلال بها. وبما أن أول من سكنها كان يثرب بن قانيه بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن

[1] نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص231-233

[2] مفردات القرآن، ص181

[3] تدبر قرآن، 239/6

[4] شعراء النصرانية، ص491

سام بن نوح، فلذلك ذاع صيته يثرب. ويقول الفراهي. إن يثرب كان اسم بلد وسيع حسب سعة سكانها ولما قل بنو يثرب ضاق فبقي لمدينة الرسول.[1]

ما هو معنى الوسيلة، تناول المفسرون هذه الكلمة بالبحث والدراسة الجادة. وترى فئة أن عشق الرسول هو الوسيلة ويظنه وسيلة لنجاتهم، ويرى فئة أخرى أن هذا التصور غير حقيقي. ولو حاولنا فهم معنى الوسيلة في ضوء القرآن الكريم فيزولهذا النزع والاختلاف. ونلاحظ معنى الوسيلة الحقيقي في السطور التالية:

ابتغوا إليه الوسيلة أي بالزكاة والجهاد. فإن الكفار لا وسيلة لهم ليقتدوا بها ولو أن لهم ما في الأرض جميعًا.[2] ويقول حافظ صلاح الدين يوسف: "الوسيلة هي شيء نتقرب بها إلى الله أو نحصل على هدف خاص. وابتغوا إليه الوسيلة، معناها اعملوا أعمالًا تقربكم إلى الله وترضيه".[3] يقول الإمام الشوكاني: "إن الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرب العباد بها إلى ربهم، كما يتقرب العبد إلى الله بابتعادهم عن المنهيات والمحرمات. فلذلك اجتنابهم منها أيضًا وسيلة التقرب إلى الله. ولكن الجاهلين يرون الموتى وسيلة ويتقربون بهم إلى الله ولا أساس لها في الشريعة الإسلامية. ولا ننكر أن المقام المحمود الذي شرف به النبي ﷺ في الجنة وسمّاه في الحديث بالوسيلة. ولذلك قال النبي ﷺ: "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة".[4]

ومباحث السيرة النبوية مبعثرة في مؤلفات الفراهي. وتشمل جهود الفراهي الجبارة في ترتيب "سيرة النبي" الذي ألّفه العلامة شبلي النعماني ولعله من المناسب أن

[1] مفردات القرآن، ص241-242

[2] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 154/1

[3] تفسير أحسن البيان، ص302

[4] الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء

نقدم آراء الفراهي هذه في صورة المقتبسات. ويفيد هذا الشيء من يشغفون بالسيرة النبوية. إن الفراهي كان يريد أن يرتب السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم ولكن الحياة لم تمهله لتكميل هذا. وأتمّ خالد مسعود هذه الخطة في صورة "حيات رسول أمي" الذي ينفرد في مجال السيرة النبوية. ومن أبرز الميزات التي يتميز بها هذا الكتاب أنه تناول كثيرًا من الأحاديث الضعيفة والموضوعة المتعلقة بالسيرة النبوية ثم استعرضها بأسلوب علمي. يقول:

"لم أزل أحاول الاستفادة من الأحاديث الواردة في كتب السيرة النبوية وعامة ما قبلتها في ضوء مقاييس كتاب السيرة النبوية وتحقيقهم. ولكن حيثما أجد أن رواية عن الرسل لا توافق سنة الله فيهم، أحاول أن أبين سقمها. ومن هذه الناحية سيجد القراء هذا الكتاب منفردًا عن كتب السيرة الأخرى. ونوثق جميع مباحثه بالدلائل والبراهين إن شاء الله تعالى".[1]

ومن ميزاته أنه ألقى الضوء على ترتيب القرآن الكريم بأسلوب، لا نجد له نظيرًا في كتاب آخر.[2] وعلى كل حال أن المنهج العلمي الذي اختاره السير سيد بشأن السيرة النبوية، تناوله كلّ من العلامة شبلي والفراهي وخالد مسعود وأبلغوه إلى القمة.

وألّف الفراهي كتيبًا صغيرًا حول السيرة النبوية باسم "سلسلة أنساب النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الكتاب". كشف فيه النقاب عن افتراءات أهل الكتاب والمستشرقين وخياناتهم العلمية. ويجب على من يؤلف مثل هذا السفر الجليل أن يعرف اللغة العبرية وذلك بما أنه لا يمكن الاستفادة من التوراة حال عدم معرفته بهذه اللغة ولا ينجح في إماطة اللثام عن تحريفات أهل الكتاب. تصل سلسلة أنساب النبي ﷺ إلى إسماعيل ولذلك لم يزل يحاول اليهود أن يبرز بني

[1] حيات رسول أمي، ص 12

[2] المصدر نفسه، ص525-539

إسرائيل من طرق مختلفة. ولذلك حرّف في الإنجيل. وحاول الفراهي إبراز الحقيقة من خلال تقديم أنساب آدم عليه السلام الواردة في التوراة وأشار إلى ضعفها. وتناول هذا الكتيب مكوث بني إسرائيل في أرض الحجاز وبنائهم لبيت الله فيها. وذلك لكي لا يبقى أي شك في سلسلة أنساب النبي ﷺ ويخبرهم بأن بني إسماعيل هم الذين بنوا هذا البيت العتيق وبذلوا كل جهودهم في جعلها مركزًا للتوحيد.

وللفراهي مساعٍ مشكورة في إزالة الشكوك والشبهات لأهل الكتاب من اليهود والنصارى وهي:

أولًا: لم يدخل إبراهيم جزيرة العرب ولا استوطن بالحجاز وأن بئر سبع القريبة من بيت المقدس كانت هي موطن إبراهيم.

ثانيًا: كان إسحاق هو الذبيح وأن الجبل الذي اختير لذبحه هو جبل سوريا ببيت المقدس.

ثالثًا: كان إبراهيم قد طرد إسماعيل وأمه هاجر من البيت فتوجها إلى صحراء فاران التي تقع في شمال الجزيرة العربية خارج الحجاز وتوطنا هناك.

رابعًا: كانت هاجر أمة مصرية وأنها زوجت إسماعيل أيضًا من امرأة مصرية.

خامسًا: لا علاقة للكعبة بإبراهيم عليه السلام بل هي كانت معبدًا لعباد الأصنام العرب. ولأن هدمها كان يشق على العرب فلذلك حطم محمد صلى الله عليه وسلم الأصنام وقضى على عبادتها ولكنه أبقى على المعبد مع طقوسه على وجه الاضطرار واكتفى بالإصلاح الضروري.

سادسًا: العرب ليسوا من أولاد إبراهيم. إذ لم يرد هذا الادعاء إلا في القرآن كما جاء فيه أن إبراهيم رفع قواعد الكعبة.

سابعًا: سفر التثنية الذي يقول إن النور الإلهي تلألأ من جبل فاران ليس بكتاب موثوق به.

ثامنًا: القصص القرآنية حكايات مسموعة من اليهود والنصارى. ومعظمها لا يطابق الأصل عمدًا أو بدون عمد. وبالتالي كل الحكايات التي تخالف التوراة لا أساس لها من الصحة.[1]

ثم ردّ الفراهي على هذه الاعتراضات التي أثارها اليهود والنصارى بأسلوب علمي مقنع، تتضح منها سلسلة أنساب النبي صلى الله عليه وسلم ويقطع بها دابر مزاعمهم الباطلة. وكتيبه، على الرغم من كونه صغيرًا في الحجم، جدير بالعناية والإشادة والتقدير.

ويبدو من خلال دراستنا لبحوث الإمام الفراهي وخدماته أنه كان يريد أن يقدم الإسلام وشخصية النبي صلى الله عليه وسلم إلى العالم وخاصة إلى المستشرقين في أسلوب علمي. ولا يزال ينهمك في تقديم حبه للنبي صلى الله عليه وسلم من خلال البحث والتحقيق. وإتمامًا لهذا الهدف رتب الفراهي كتيبًا صغيرًا باسم "إحكام الأصول بأحكام الرسول" يشمل خمس عشرة صفحة. وهذه مسودة غير تامة ولو تم الكتاب لكان إضافة قيمة في مؤلفات السيرة النبوية. ولعله من المناسب أن ننقل هنا ما قال الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي في التعريف بهذا الكتاب.

"كان الفراهي يريد بهذا الكتاب أن يبين أصول استنباط الأحكام الفقهية في ضوء الاستنباطات القرآنية للنبي صلى الله عليه وسلم. تشمل مسودة هذا الكتاب سبع عشرة صفحة. فيه أرقام الصفحة إلى ثماني صفحات ثم وضعت مباحث متفرقة متعلقة بهذا الكتاب. وتتضمن المبيضة تسع صفحات. وجاء اسم الكتاب وموضوعه على غلافه هكذا: "إحكام الأصول بأحكام الرسول في علم أصول الفقه المأخوذة من استنباطات الرسول عليه السلام من القرآن الكريم". ويبدأ التمهيد على الورقة الثالثة بعد البسملة وخطبة الكتاب:

[1] رسالة سلسلة أنساب النبي وأهل الكتاب، ص30

"أما بعد فهذا كتاب في أصول الفقه المؤسسة على أحكام الرسول عليه السلام مما استنبطه من كتاب الله، وهذا علم جديد، وإنما لم يلتفت العلماء إليه لظنهم بأن الله تعالى لما فرض عليهم طاعة رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، أغناهم عن طلب السند لما كان يأمرهم به وينهاهم عنه. فإن قوله عليه السلام أصل مستقل سواء استنبطه من الكتاب أم لم يستنبطه. وهذا أمر مسلم لا يشك فيه مسلم ومع ذلك معلوم أنه عليه السلام كان يستنبط من كتاب الله كما جاء التصريح منه عليه السلام في كثير من الأحكام وقد أمره الله عز وجل بذلك في القرآن كما سنذكر جملة وندع تفصيلها للتدبر".[1]

ثم جاء ذكر ستة أحكام هذا النوع، يتبعها بعض المباحث بعنوان "في أن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها مستنبط من القرآن، وفي أن الرجم أو تغريب عام مستنبط من القرآن".

وموضوع هذا الكتاب مهم جدًا. وأراد الكاتب من خلال الخوض في صلب الموضوع ولكنه لم يستطع ووافته المنية بعد أن كتب بعض الإشارات حول الموضوع.[2]

تتمتع سيرة النبي للعلامة شبلي النعماني بالسمعة الكبيرة والمنزلة العظيمة في كتب السيرة النبوية. وينفرد في مواده وأسلوبه عن الآخر. وخاصة تتعجب وتندهش الأوساط العلمية والأدبية بأسلوبه الرائع الجميل الذي اختاره في كتابة "ظهور قدسي".[3] وكذلك صوّر الفراهي شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في مقدمة تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" بأسلوب رشيق، يتمتع بروعة الجمال وسلاسة البيان ويريد القارئ أن يعيدها مرارًا وتكرارًا. ومن المفيد أن ننقل هذا المقتبس وننهي به المقال، ليحظى بقرائتها القارئ:

[1] مولانا حميد الدين الفراهي- حيات وأفكار، ص67-68

[2] ذكر فراهي، 114/1

[3] سيرة النبي، 411/1

"ورسوله سيدنا محمد النبي العربي صلّى الله عليه وآله صلاة تدوم وسلّم تسليمًا مستمرا، إلى آخر الأمد ومدى العدد دهرًا فدهرا، الذي أرسله رحمة للعالمين طرا، سراجًا منيرًا فأشرقت بنوره الأرض بحرًا وبرا، مباركًا مطيبًا فنشر منه في الآفاق نشرا، عطوفًا رؤوفًا فقوي به الضعفاء جبرا، غيورًا صبورًا فقمع به الجبابرة كسرا، بعثه بحنيفية سمحاء فأعطاه دينًا يسرا، ووضع به ما كان أغلالًا وإصرا، وجعل له أمة مسلمة يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم حكمة وبرّا، أزاح عنهم نخوة الجاهلية فلم يترك لبعضهم على بعض بطرًا ولا فخرا، إخوة أخلاء لا يحمل بعضهم لبعض حقدًا ولا وترا، واختار له منهم صحبًا كرامًا لهاميم غرّا، أشدّ لله حبًا وأوفى ذمة وأكمل صبرا، فأخلصوا لربهم منهم سرّا، وشدّوا لنبيه أزرا، وأعزوا لدينه نصرا، فأقرّ الله بهم الصالحين عينًا وأضحك لهم ثغرا، وأهان بهم الظالمين وملأ صدورهم وغرا، واستخلفهم متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله فرضي الله عنهم ونضر وجوههم نضرا".[1]

[1] نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 22

المصادروالمراجع

1. أعلى حضرت إمام أحمد رضا فاضل البريلوي: كنز الإيمان (إفادات)، إداره استقامت، كانفور، يوبي، بدون سنة
2. الإمام حميد الدين الفراهي: تفسير نظام القرآن (نقله إلى الأردية: أمين أحسن الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائمير، أعظم كره، 1990م
3. الإمام عبد الحميد الفراهي: تعليقات في تفسير القرآن الكريم (إعداد: الدكتور عبيد الله الفراهي، ومراجعة: الشيخ أمانة الله الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائمير، أعظم كره، الطبعة الأولى، 2010م
4. الإمام عبد الحميد الفراهي: تفسير سورة الكوثر (منهج جديد ورؤية جديدة)، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2010م
5. الإمام عبد الحميد الفراهي: رسالة سلسلة أنساب النبي وأهل الكتاب، مركزي مكتبه إسلامي، نيو دهلي، الطبعة الأولى، 1991م
6. الإمام عبد الحميد الفراهي: مفردات القرآن (تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي)، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2002م
7. الإمام عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائمير، أعظم كره، الطبعة الأولى، 2008م
8. أمين أحسن الإصلاحي: تدبر قرآن، تاج كمبني، دهلي، الطبعة الأولى، 1989م.
9. أمين أحسن الإصلاحي: قاموس ألفاظ واصطلاحات قرآن (ترتيب وتحقيق: أورنغ زيب الأعظمي)، إسلامك بك سينتر، نيو دهلي، الطبعة الأولى

10. حافظ صلاح الدين يوسف: تفسير أحسن البيان (ترجمة: خطيب الهند مولانا محمد جونا كرهي ومراجعة: مولانا صفي الرحمن المباركفوري)، دار السلام، الرياض، بدون سنة
11. خالد مسعود: حيات رسول أمي، قرآن وسنت أكيدمي، نيو دهلي، الطبعة الأولى، 2004م
12. الدكتور عبيد الله الفراهي(ترتيب): مولانا حميد الدين الفراهي- حيات وأفكار، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائمير، أعظم كره، 1992م
13. شرف الدين الإصلاحي: ذكر فراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، 2001م
14. العلامة شبلي النعماني: سيرة النبي، دار المصنفين، أكاديمية شبلي، أعظم كره، 1996م
15. لويس شيخو اليسوعي: شعراء النصرانية، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1890م
16. محمد عبد الرزاق الكانفوري: البرامكة، كراتشي، نفيس أكيدمي، الطبعة الثانية، 1961م

ISSN: 2321-7928

أسلوب الإمام الفراهي في ضوء كتاباته

- د. محمد قاسم العادل[1]

الملخص: الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) "كان آية من آيات الله في حدة الذهن وكثرة الفضل وسعة العلم، فكما أعطاه الله تعالى ذهنًا ثاقبًا وفكرًا عملاقًا، ملأ قلبه بحبّ العلم والمعرفة فقد جمع بين العلوم القديمة والحديثة لكي يتمكن من مواجهة التيارات المناهضة للإسلام."[2] هو "الرازي والغزالي لهذا العصر".[3] وإلى جانب كونه فلسفيًا ومتكلمًا، أديبًا وشاعرًا، كان الفراهي متنفسًا في ظلال القرآن العظيم ومتدبرًا في آياته النيرة، وصاحب ملاحظات دقيقة وآراء سديدة في علومه المختلفة. فهو عالم مدقق، وباحث محقق، وإمام فذّ، وكاتب ذو أسلوب خاص ومنهج ممتاز، فيتجلى لمن يتدبر في كتبه المطبوعة والمخطوطة أنّ أسلوبه في مؤلفاته يتسم بالبساطة والسهولة والبعد عن التكلف والغرابة والتكرار المحض الذي لا طائل تحته. فأسلوبه مبني على الإيجاز وعلى استعمال الألفاظ ما يكفي لتوضيح المراد. ويصير أسلوبه جميلًا بارعًا حين يعالج الموضوعات الأدبية، أو يثبت شيئًا من الحماس والقوة حتى يتلذذ القارئ ويرغب في تكراره وإعادته. وسنتعرف على أسلوب الإمام الفراهي في ضوء كتاباته بدقة واستيعاب في هذه الورقة إن شاء الله تعالى.

الإمام الفراهي ودور أساتذته في تكوين شخصيته وأسلوبه الممتاز:

قُـــم لـلـمـعـلـــم وفِّـــهِ التبـجـيـــلا كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا

[1] أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية ذاكر حسين دلهي التابعة لجامعة دلهي، الهند (qasim4arabic@gmail.com)

[2] من أقوال سيد سليمان الندوي فيه: الإمعان في أقسام القرآن، ص 4

[3] ذكر فراهي، ص 783

أ علمتَ أشرف أو أجلّ من الذي يبني وينشئ أنفسًا وعقولا[1]

لا يخفى على من له أدنى إلمام بتأريخ الأجيال والأمم أن للأساتذة والمعلّمين فضلًا عظيمًا في تنوير العقول وتهذيب النفوس، ودورًا فعالًا في بناء العمالقة والجهابذة. وينوب المعلّمون عن المعلّم الحقيقي ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾[2] فللمعلم مساهمة لا يستهان بها في بناء الجيل الجديد، وفي تقرير مسير التلميذ إلى المستقبل الزاهر. وقد وهب الله الوهاب المتعلم الفراهي مواهب فطرية من فطنة العقل وتوقد الذكاء بالإضافة إلى فرص ذهبية لتلقي العلوم من أفضل المعلّمين في عصرهم والأئمة في مجالاتهم.

وبدأ الفراهي مسيره الدراسي تحت رعاية العلامة شبلي النعماني (1885- 1914م) وهو أبرز علماء الهند في العصر الحديث، ومن أعلام نهضتها الأدبية والعلمية الذين ساهموا بجهود ملموسة في مجال الأدب والتاريخ والدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية. ومن الحق أنه كان أكاديميًا في شخصيّته ذات الأبعاد المتنوّعة. فأثرت فيه أفكار الأستاذ التعليمية والإصلاحية ومناهج تفكيره العلمي. واتضحت أمام الفراهي سبل الحياة المظلمة، كما عرف أن النزاع والخلاف المذهبي الذي ساد أوساط العلماء لا يمت إلى الإسلام بأية صلة، بل إنه نتيجة لضعف عقلية بعض المسلمين وسطحية تفكيرهم. وكان النعماني يوجه تلميذه وأخاه الفراهي للدراسة الواسعة لجميع العلوم الدينية والأدبية، كما يتضح بالمقال الذي كتبه سيد سليمان الندوي في مجلة "معارف" فيقول: "إن الفراهي حينما طبع ديوانه الفارسي في كراتشي. وبتوجيهات العلامة شبلي وكثرة طلبه مال إلى البحث والنقد في العلوم".[3]

[1] هذا البيت المشهور مطلع قصيدة من عيون الشعر العربي الحديث لأمير الشعراء أحمد شوقي (1868-1932م)، أنشدها في حفل أقامه نادي مدرسة المعلمين العليا، بين الناس من يومها، لما فيها من قيم عليا تحث على العلم والتعليم، وترفع مكانة المعلم بين الناس.

[2] سورة العلق: 4-5

[3] مجلة معارف، مقال سيد سليمان الندوي، 1931م: 12

ومن أساتذة الفراهي العلامة فيض الحسن السهارنفوري (1816-1887م) المعروف بصانع الرجال العظام. وانتهل من منهله العذب السير سيد أحمد خان (1817-1898م) مؤسس جامعة علي جراه الإسلامية، والعلامة شبلي النعماني (1885-1914م) صاحب "سيرة النبي" و"شعر العجم"، والمولوي إعزاز علي الديوبندي (1886-1955م) الأديب الكبير وغيرهم من العباقرة الذين غيروا مجرى التاريخ وخلدوا أسماءهم في تاريخ التمدن الإسلامي. وكان السهارنفوري معروفًا بحب العلم والأدب. وهذا هو الحب الذي أوصله إلى مكانته العالية في العلوم العربية والإسلامية. وكان يملك ذوقًا سليمًا يفهم المعضلات الأدبية بأول نظرة، وكانت له جولة وصولة في الأدب العربي. وقد أصاب من قال: "إنه لم يكن له نظير في معرفة الفنون الأدبية".[1] فقد أثر في عقلية الفراهي ومناهج تفكيره وسلوكه في الحياة، وتبين هذا الأثر من القصيدة التي رثاه الفراهي فيها بعد وفاته.[2] فإنه عرف بأول لقاء مع السهارنفوري أنه أديب عديم المثال، وبعدما درس عليه تبين له أن الأستاذ وصل إلى هذه الدرجة من العلم والمعرفة بعد بذل جهود جبارة في هذا السبيل، ومن هنا نشأ في ذهن المتعلم هذا حب العلم والأدب ودراسة اللغة العربية دراسة مستفيضة جدية، كما تغيرت مناهج تفكيره وأساليب كتابته وبحثه. وتحدث العلامة سيد سليمان الندوي (1884-1953م) عن هذا الأثر: "فقد كان يكتب العربية- قبل أن يذهب إلى فيض الحسن - بأسلوب أعجمي جاف، ولكنه بعدما درس على فيض الحسن بدأ يكتب العربية على سبك بلغاء العرب وفصحائهم".[3]

ومن أساتذة كلية علي جراه الإسلامية الذين درس عليهم الفراهي، المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد، وهو من المستشرقين الذين درسوا الإسلام وألّفوا فيه

[1] الثقافة الإسلامية في الهند، ص 49

[2] لا توجد هذه القصيدة في مجموعة قصائده إلا أنّ تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي قد أشار إليها

[3] ترجمة الفراهي لسيد سليمان الندوي، ص 2

وعنه. وكان أرنولد أستاذًا للفلسفة في هذه الكلية، فحضر الفراهي محاضراته في الفلسفات الحديثة عامة والفلسفة الإسلامية خاصة، فأعجب به وبسعة اطلاعه على العلوم الإسلامية، فضلًا عن العلوم الغربية التي كان أرنولد صاحب بيتها، فنشأ في قلبه حب الدراسة للفلسفات الغربية حتى يستطيع أن يقارن بين أبحاث علماء الغرب وأبحاث علماء الإسلام. وأيقن أن الخدمة الصحيحة للإسلام وثقافته وتعاليمه لا تمكن بدون الوقوف الكامل على مناهج علماء الغرب في البحث والتفكير، ومن هنا بدأ يبذل جهدًا لدراسة الفلسفات الغربية والآداب الغربية "فصار مجمع البحرين" "وبينهما برزخ لا يبغيان"، وكان عالمًا بالعلوم العربية والدينية وفاضلًا في العلوم العصرية والإنكليزية. فاجتمعت فيه خصال الجنسين المثقفين من العلماء الراسخين والمتنورين من الفضلاء الكاملين.[1]

والأستاذ الآخر للفراهي هو يوسف هارفيز الألماني الذي كان يحب الإسلام وثقافته. وكان ماهرًا في اللغة العبرانية، فدرس عليه الفراهي هذه اللغة حتى تمكن من قراءة الكتب العبرانية وفهمها وقد استفاد منها كثيرًا في تفسير القرآن الكريم وكتبه التاريخية. ولهؤلاء وغيرهم من الأساتذة دور ملموس في تثقيف الإمام الفراهي ثقافة متنوعة وتكوين شخصيته العبقرية.

الفراهي وكتابته في اللغة العربية: كان الإمام الفراهي بدراسته العميقة للغة العربية وآدابها وعلومها قد صار عربيًا في التعبير وصار ذوقه الأدبي كالعرب الخلص، ولكن مع كل هذه المزايا التي تجسدت في شخصيته كانت مزية أخرى قدغلبت تلك المزايا كلها وهي حب القرآن وكان الإمام يحب كتاب الله وتلاوته منذ أنْ كان صغيرًا لا يفهم معانيه ولا يدرك بلاغته ولكنه كان يلتذ بالصوت المعجز الذي ينبع من تنسيقه المعجز ونظمه البديع، فلما درس اللغة العربية وآدابها وتضلع منها جعل هدفه الوحيد القرآن الكريم وتدبره، فكان الكتاب العزيز نقطة

[1] نفس المصدر

تدور حولها كل العلوم التي تخصص فيها. فقد استخدم هذه العلوم القديمة والحديثة لفهم معانيه وتعاليمه وشرح كلماته وتفسير مجمله، فلا أبالغ إذ أقول إنه تدبر القرآن حق التدبر، ودرس كل العلوم والآداب بالدقة والنقد للتعمق فيه وفهمه الحقيقي. وكان يحفظ كثيرًا من الأشعار والخطب الجاهلية، وأنفق أموالًا طائلة للحصول على الدواوين الجاهلية من الشعر، كما تعلم اللغة العبرانية من الأستاذ الألماني يوسف هارفيز الذي كان مدرسًا بكلية عليكره الإسلامية. فدرس الكتب المقدسة وشروحها في هذه اللغة واستدل بها على نظرياته، وعرف كيف حرّف أهل الكتاب أسفارهم، وكان يستغل التاريخ والجغرافية خير استغلال لمعرفة الأمكنة التاريخية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كما أن القرآن يحتوي على الأمور الاجتماعية والسياسية والطبيعية، كما يشمل الأمور الغيبية أو ما بعد الطبيعة. فإنه كان يملك نظرًا عميقًا في الفلسفات القديمة والحديثة، ودرس كل الكتب بهذا الصدد التي أمكن الحصول عليها، وهكذا قد درس الحديث النبوي والفقه الإسلامي ـ تاريخهما وتطورهما. أحدهما كأساس التشريع الإسلامي والثاني كصورة تطبيقية للأصول الإسلامية.

وقد بلغ الاستعمار الإنجليزي في عصر الفراهي كماله واشتدت حملات المستشرقين على الإسلام والمسلمين واتسعت دائرتها، فكان عصره أخطر عصر. ففيه جدّت الأحداث والفتن وحدثت الحركات المعادية للإسلام وانتشرت الأفكار الإلحادية المعادية لفكرة التوحيد التي هي ميزة الإسلام الكبرى. فلم يكن من أسباب هذه الآراء والأفكار أن المستشرقين والمبشرين الإنجليز والفرنسيين قاموا بدور خطير لنشر النظريات المناهضة للإسلام، وبذلوا جهودًا جبارة لإثارة الشكوك والشبهات في الأجيال الناشئة عن تعاليم الإسلام الخالدة فقط، بل للأسف الشديد سبقته عقلية المسلمين أنفسهم عن دينهم وقيمه الأخلاقية والإنسانية، لأن الاستشراق أو التبشير لم يدخل أي بلاد من العالم الإسلامي والعربي إلا بعد ما رأى أن المسلمين قد خارت قواهم الذهنية والفكرية والعقلية

وضعف تمسكهم بالدين الحنيف، فحينما دخل الاستعمار الإنجليزي الهند كان المسلمون قد وهنت صلتهم بالإسلام وكانوا غافلين عن التراث الإسلامي القيم، وكانوا يسبحون على سطح العلوم والآداب ويحرمون على أنفسهم التعمق، وكانت الغاية عندهم الشروح والحواشي، فعند ذلك قام التفكير الغربي الاستشراقي الذي كان ينتهز هذه الفرصة، فالأجيال الناشئة لها العذر إذ أعرضت عن التمسك بالإسلام، كما لها العذر في الزراية عن أهله والاستهزاء بالمنتسبين إليه من علماء وشيوخ متبطلين علميًا وماديًا، لم يكونوا قادرين على فهم الإسلام فهمًا حقيقيًا لبعدهم عن روح القرآن الكريم وتعاليمه النبيلة الخالدة التي بلغ بفضلها بعض المسلمين في العصر الأول ذروته، وتغلبوا بفضل تعاليمه على القياصرة والأكاسرة، وملأوا الدنيا كلها من مشارق الأرض ومغاربها بنور الإسلام. ولكن لما بعدوا عن الدين وتركوا العمل بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خارت قواهم وزالت هيبتهم عن أعين أعداء الإسلام، وكذلك جدت بينهم الخلافات المذهبية والطائفية التي مهّدت السبيل للمستشرقين وعلماء الغرب أن يغرسوا أفكارهم في أذهان الأجيال المسلمة، فلم يكن القضاء على هذه الفتن والخلافات المذهبية والطائفية ممكنًا إلا بجمع المسلمين على كلمة الإسلام، فكيف يتحقق ذلك مادام سائدًا فيهم دراسة القرآن الكريم دراسة تقليدية؟ فكان من الواجب الحتمي أن يوجه المسلمون توجيهًا سليمًا، وأن يثار فيهم التشوق إلى دراسة القرآن وتدبره، حتى يتحقق تقريب المسلمين من تعاليم الإسلام وإنارة أذهانهم بنوره.

فلم يقم الأستاذ الفراهي بالرد على المستشرقين والمبشرين فقط كما فعل بعض العلماء، بل أراد أن يقوم بدور إيجابي بهذا الصدد وذلك أن يصحح أفكار المسلمين ويجعل لهم مدخلًا لفهم كتاب الله، وكما أن الفراهي لم يكن مؤلفًا محترفًا، بل كان يريد إصلاح المسلمين عامة عن طريق إصلاح العلماء إذ بيدهم زمام أمورهم الدينية، وجاء في وصفهم أنهم ورثة الأنبياء، ولذلك أراه قد بدأ يكتب عن جميع العلوم التي لها علاقة بالقرآن الكريم، كما أنه اختار لكتابته

اللغة العربية لأنها هي اللغة الموصلة إلى فهم الإسلام حقًا وهي كذلك اللغة المشتركة بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. وعندما بدأ يؤلف كتبه باللغة العربية ولاسيما تفسيره للقرآن الكريم اعترض عليه بعض معاصريه قائلًا: لماذا تفسّر القرآن الكريم بهذه اللغة وعارفوها في الهند لا يتجاوزون عدد الأنامل؟ فرد عليه قائلًا: "إني أفسّر كتاب الله للعلماء لأنهم هم الذين بعدوا عن جادة الطريق فكرةً وعملًا، فبدون إصلاحهم لا يمكن إصلاح المسلمين، فبتفسيري لكتاب الله أريد إصلاحهم إصلاحًا فكريًا وعمليًا لتزول الانحرافات التي تجسدت في المجتمع الإسلامي، كما أني لا أريد أن أجعل رسالتي مقتصرة في بلد دون آخر من العالم الإسلامي، بل أريد أن تعم هذه الرسالة وتنتشر في جميع البلاد الإسلامية. ومن المعلوم أن لغة علماء المسلمين المشتركة هي اللغة العربية لغة كتاب الله ولذلك اخترتها لنشر أفكاري ورسالتي".[1]

وبالإضافة إلى ذلك كان الفراهي متحمسًا للعرب ولغتهم غاية التحمس لا نرى نظيره في هذا الميدان، فقد كان يرى أن الدفاع عن العرب دفاع عن الدين لأنهم حاملوا هذا الدين، والرسول ﷺ بعث فيهم ومنهم إلى الناس كافة، فبعض كتبه أمثال "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، وتفسيره لسورة الفيل، و"جمهرة البلاغة" وغيرها خير دليل على تحمسه للعرب.

أسلوب الفراهي في التأليف: وأما الكلام عن خصائص أسلوب الفراهي وميزاته الرئيسية فيتجلى لمن يتدبر في كتبه المطبوعة والمخطوطة أن أسلوبه في مؤلفاته يتسم بالبساطة والسهولة ويبعد كل البعد عن التكلف والتكرار المحض الذي لا طائل تحته. وعلى الأصح أنه أسلوب مبني على الإيجاز وعلى استعمال الألفاظ ما يكفي لتوضيح المراد ويصبح أسلوبه جميلًا لافتًا للأنظار حين يعالج الموضوعات الأدبية، أو يثبت شيئًا من الحماس والقوة حتى يتلذذ القارئ ويرغب في تكراره وإعادته.

[1] أنظر ترجمة الفراهي بقلم أمين أحسن الإصلاحي، ص 36-37 بتصرف

وترجمة حياة الإمام الفراهي ودراسة كتاباته تشير أيضًا إلى أنه قرأ القرآن الكريم وعاش في ظلاله، ووعى بيانه، وتأثر بما في أسلوبه من الدقة والإحكام، والجزالة، وروعة الانتقال، وجمال التمثيل، والعناية بالبلاغة الساحرة، كما قرأ الأحاديث النبوية، ووعى بلاغتها، وتأثر بما في أسلوبها من البساطة والإيجاز والتوافق بين الألفاظ وحال المخاطبين. وقد قاده هذا التأثر بأسلوب القرآن الكريم والأحاديث النبوية إلى الإيمان بالأسس الثلاثة للبلاغة، وهي: مطابقة العبارة لمقتضى الحال، والبيان أو وضوح الدلالة، والإيجاز وعدم التكلف. وسعى إلى ترسيخها، تبعًا لتأثره بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الذي يجعل لكل مقام مقالًا، ويطالب المتكلم بمعرفة أقدار المعاني والموازنة بينها وبين أقدار المستمعين، ويعدُّ البيان اسمًا جامعًا لكل شيء كشف للقارئ قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله. وهو يتحدث عن صناعة الكلام في كتابه "جمهرة البلاغة":

"وبيان حال المتصنعين يستدعي تفصيلًا وذلك الذي يهمّنا ويغنينا فإن الصناعة وضعت لهم كما أنها أخذت من المطبوعين كالملك المختار، تدور الصناعة معهم حيثما داروا والمتصنعون كالرعية يطيعون قوانين البلاغة ... فإن قلت إن بعض المتكلفين من المتخيلة والعقل والبصيرة بصناعة الكلام ما به يستطيع أن يأتي بأحسن مما يرتجى في المطبوع اللسن، ولولا ذلك لما خدع زخرف القول أحدًا في الناس، قلت ألا ترى أن الجاهل يحسب الزجاج جوهرًا. ولكن مع ذلك بينهما فرقًا عند البصير ... قلت أجدر بالجواد أن ينخدع المرء وربما ينخدع المرء السليم لحسن ظنه بالناس وغرارته ولكنا بيّنا أن النطق أمر فطري في الإنسان".[1]

"فإن تبينت ما سبق من الكلام علمت شرف البلاغة لكونها بين العقل وعنصر الإنسانية وترجمان الصدق وإكليل العز ، وشمرت لاقتناءها وحللت بغناءها

[1] جمهرة البلاغة، ص 19-20

وتيقنت أنها حري بأن تكون معجزة لنبي عظيم أكبر من قلب العصا حيّةً وجعل الجثة حيا".[1] و"إن القرآن ذو وجوه كجوهرة ذات جوانب ترى بالشعاع من جهات مختلفة شتى، ومع ذلك يهدي إلى سبيل".[2]

وأشار الإمام الفراهي إلى المنهج الذي اختاره لعرض أفكاره وآرائه في تفسيره وهو أنه لم يشأ أن يكون على نهج كتب المفسرين التي يوجد فيها تكرار وإطناب وإسهاب وتفصيل، فيبين فيها كل مسئلة مبعثرة منتشرة في كل مكان يأتي ذكرها بل أراد أن يكون الإيجاز وعدم التكرار من أهم صفاته فإنه كان محبًا شديدًا للإيجاز والاختصار مبغضًا مفرطًا للحشو والفضول.[3]

ولكنه يصل إلى هذا الهدف ويجعله موجزًا مختصرًا خاليًا من التكرار الذي من شأنه تشويش الكلام. وخطط تخطيطًا علميًا وعقليًا وذلك أنه جعل لتفسيره مقدمة ناقش فيها الأمور الهامة والأسس التي يعتمد عليها في فهم مسئلة من مسائل التأويل والنظم أو كانت هي جامعة لمعارف عظيمة. وأما المسائل الرئيسية الجوهرية التي يحتاج إلى ذكرها في أماكن عديدة أو وجدها ناقصة تحتاج إلى بحث وتحقيق مزيد أو جديد، فأفرد لها كتابًا خاصًا مستقلًا مع جعلها تابعة لمقدمة التفسير مثل "أقسام القرآن" و"أساليب القرآن" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" فكأنه كتب تفسيرًا ومقدمة له.

وهكذا أخرج كل بحث طويل وكذلك كل مسئلة من مسائل القرآن التي وجدها أنها تكون مانعة من الوصول إلى تأويل سليم فجعل لها كتابًا مستقلًا ليتيح فرصة الكلام عليها من كل جانب ويناقشها مناقشة علمية موضوعية شاملة.

وهذا المنهج الفني يختلف عن مناهج المفسرين قبله خاصة منهج فخر الدين الرازي (1149-1209م) الذي يتحدث عن المسئلة الواحدة في عدة أماكن. وقد

[1] نفس المصدر، ص14

[2] رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص68

[3] أنظر: الرأي الصحيح في من هو الذبيح، ص1-3

كان هذا خللًا منهجيًا في تأليف المفسرين ولكنه كان أسبقهم وأسرعهم في أخذ هذا العيب فيها وإيجاد حلّ سليم.

ولذلك يمتاز الفراهي عنهم بمنهج علمي عقلي واضح، وإني أرى في اختلافه عن مناهج المفسرين الآخرين واتخاذ منهج جديد لنفسه لأجل الثقافة العصرية التي ثقّف بها نفسه، وكذلك لملكة النقد والابتكار التي توجد فيه بدرجة أتم.

وهكذا استكمل الفراهي العدة قبل كتابة تفسيره ورسخ نفسه في كل علم يحتاج إليه واطلع على كلّ ما سطره المفسرون من المتقدمين والمحدثين. وتأثر منهم تأثرًا طبيعيًا مباشرًا وغير مباشر، فإنه كان إنسانًا والإنسان يتعلم بالبينات سواء كانت متحضرة أم غير متحضرة وبعبارة أخرى يتعلم بخبرته وخبرة السابقين. فليس التأثر بالغير أمرًا مشينًا ولا معيوبًا وهو شيء طبيعي ولكن المهم أن ننظر أنه كيف درس واستفاد وتأثر واستخرج منها شيئًا جديدًا وميّز بين الجيد والردئ، والغث والسمين، وأخذ اللب الصافي من الآراء، واعتمد على تفكيره الخاص كقاض يختبر أدلة كلا الفريقين غير منحاز إلى فريق دون فريق ويكشف الحق ويمر عليه ويوضح مواقع الزلة والخطأ ويحترز منه فنجد عنده أحيانًا استقلالًا مطلقًا ينطلق وحده ليس معه أحدٌ وأحيانًا يرجح أحد الأقوال على الآخر وذلك بأدلة أخرى قوية وبتلوينه بصبغة خاصة يمكن أن نعبر عنه بصبغة فراهية.

ويتجلى من خلال دراسة مؤلفات الإمام الفراهي وعلى الأخص تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" أن أسلوبه يعتمد على مصادر خمسة رئيسية:

الأول: القرآن نفسه يستقي منه الفكرة والأصول. "وأما القرآن فيعض عليه بالنواجذ فيحافظ على حروفه وحركاته ويعتمد على ما يستنبط من نظمه وإشاراته"،[1] "فالسبيل السوي أن تعلم الهدى من القرآن وتبنى عليه دينك"،[2]

[1] رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 212

[2] نفس المصدر، ص 275

"فإن جعلت القرآن أصلًا لتمام علم الدين كما هو في الحقيقة، صار من الواجب أن يؤسس أصول للتأويل، بحيث تكون علمًا عامًا لكل ما يؤخذ من القرآن"[1] ويقول ردًا على أرسطو ومن شايعه في أن المحاكاة من أبرز صفات الإنسان: "إعلم أن النطق زهرة تخرج من كمال الفهم وصلاح البنية فليس لأحد من الحيوان فطانة كفطانة الإنسان واللسان كلسانه. فمن كان أكملهم علمًا وجسمًا كان أشرفهم ولا يخفى عليك أن اللسان طوع الفهم بعدما سوّيت خلقته فهو آلة يقلبها العقل. وهذا الأمر يهديك إلى أنّ حسن النطق ليس في الحقيقة من جهة نغمته كنغمة البلبل بل حسنه في كونه آلة صحيحة للعقل لكيلا يقصر أدنى الإقصار عن إفصاح ما أراده العقل وعن إبلاغه إلى قلب السامع، فالنطق هو الرسول بين العقل والقلب فاجعل هذا الأمر الفطري وقطب رحاه لا المحاكاة فإنها أمر ثانوي لتكسب به وسائل النطق فلو لم يكن النطق في الإنسان لما استطاع المحاكاة".[2]

وكذلك يردّ على الفلاسفة الذين زعموا أن العلم الأولي يحصل بالبديهيات، وعلى المناطقة الذين قالوا إنه يحصل بحد الشيء، بتقديم رأيه أن القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضرري الفطري الذي لا يسع للعقل أن يعصيه وهو ينبوع جميع علومه وأعماله ونظره واستدلاله وهو مودع في غور فطرة النفس مكنون كاللب وراء القشور والروح وراء الستور ولكن يجري منه الجداول فتقدم الكلام فيما هو أقرب متى استعد للنظر فيما هو ألطف وأدق. فاعلم أن لليقين الفطري مجاري إلى المدركات وذلك إلهامات ولولاها لم يكن لنا علم ولا بداهة ولا نظر ولا استدلال بل ولولا هي لم تكن لنا حياة فكيف بفكر وإرادة وفعل وعمل.

الثاني: كتب التفسير، والفراهي جعل معظم كتب التفسير المشهورة مرجعًا لتفسيره، وذلك أنه إذا لم يطمئن إلى تفسير آية رجع إلى جميعها. ولكنه جعل منها

[1] نفس المصدر، ص 214

[2] راجع: نفس المصدر، ص 124-126 وجمهرة البلاغة، ص 9

تفسير الطبري والزمخشري والرازي من مصادرها الأولية في التفسير وهذه الأسماء أكثرها ورودًا. ثم من بين هذه الثلاثة يذكر الرازي بكثرة. ذلك أنه يستوعب معظم الأقوال المأثورة في تأويل الآية. "وعلم أن الرازي ذكر دلائل الفريقين تابعًا للعلامة الزمخشري ومع أن عبارة الكشاف أوجز وأبين، اخترنا النقل عن الرازي لأن تفسيره أعظم شهرة وتداولًا بين الناس".[1]

الثالث: أساليب العرب وقد ألم بها إلمامًا واسعًا كما اطلع على مجموعة ضخمة من الشعر والنثر قلما نجد مثاله عند غيره من المفسرين، فيسرد في الاستشهاد بأكثر من واحد من الأبيات ويبني عليها أفكاره.

الرابع: والفراهي يبذل اهتمامًا بالغًا في الاستفادة من الكتب المنزلة على الأمم السابقة مباشرة لأجل ثقافته المتنوعة وتمكنه من اللغتين العبرية والإنجليزية إلى جانب العربية والفارسية. وهذه الصفة لا توجد عند المفسرين إلا كالشاذ ولكن هذا اللون من الألوان البارزة في تفسيره.

الخامس: ويعتمد الفراهي على تفكيره الخاص اعتماد الباحث الواثق بصحة رأيه ويظهر ذلك في ترجيح الأقوال وتضعيفها وتعليلها وتحليلها سواء كانت المسئلة متعلقة بالتفسير أو الأدب أو البلاغة أو المنطق أو الفلسفة، ففي كل ذلك يظهر عنصره الذاتي بكل وضوح.

وقام الفراهي بتفسير القرآن الكريم بطريقة جديدة ومنج علمي وأسلوب واضح بحيث يشرح كلمات القرآن وألفاظه استنادًا إلى أسلوب العرب الذي نزل به، ثم يبين مقاصده العلمية ومطالبه السلمية في ضوء أصول قوية استمدها من الكتاب والسنة. وإذ كان الإمام الفراهي يرى أنّ كثيرًا من الفتن قد جدّت في المجتمع الإسلامي بسبب بُعد العلماء المسلمين عن دراسة القرآن الكريم دراسة

[1] أنظر: الرأي الصحيح في من هو الذبيح، ص 59

جدية، فقد بدأ يضع أصولًا متينة لتفسيره قبل أن يبدأ التفسير، فألّف لهذا الغرض مقدمة التفسير التي سمّاها "فاتحة نظام القرآن" وهي تحتوي على سبعة عشر أصلًا على الترتيب التالي:[1]

.1	أسباب النزول	.2	المآخذ الخبرية
.3	المآخذ اللسانية	.4	الكتب المنزلة على بعضها ببعض
.5	القرآن قطعي الدلالة	.6	المناسبة والترتيب
.7	إثبات أن السورة الواحدة لها نظام واحد، ونفي الاقتضاب.	.8	نسبة القرآن إلى الكتب السابقة في أمر الأحكام والحقائق.
.9	مقدار السور	.10	عيون تعليم القرآن
.11	المعروف ما عرفته العرب صالحا، والمنكر ما أنكرته	.12	النظام له دلالة خاصة
.13	أجزاء النظام	.14	أسماء السور من عمود السورة
.15	تعيين الخطاب المحتمل وجوها	.16	كيفية النزول
.17	تأويل القرآن بالحديث		

وقد وقف الإمام الفراهي عند كل أصل من هذه الأصول المذكورة وتناوله بالبحث المستفيض كما أنه قد التزم بكل هذه الأصول بدقة في تفسيره، وألّف لشرح بعض هذه الأصول كتبًا خاصة أمثال "دلائل النظام"، و"التكميل في أصول التأويل"، و"أساليب

1 راجع للتفصيل: تفسير نظام القرآن، ص 25-72

القرآن"، و"كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ"، و"مفردات القرآن"، و"إمعان في أقسام القرآن". وبحمد الله تعالى قد تم طبع كل هذه الكتب في الهند.

وبدأ تأليف "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"[1] عندما كان أستاذًا في كلية علي جره الإسلامية، ولكن طريقته تختلف عن طريقة الناس في تأليف الكتب من حيث أنه لم يبدأ من أول القرآن، كما فعل المفسرون الآخرون، بل للكشف عن نظريته وهي أنّ القرآن منظم ومرتبط بعضه ببعض من أوله إلى آخره، وكما أن في كل سورة نظامًا خاصًا، بدأ من السور التي كان فيها النظام واضحًا جليًا، لكي يتضح للناس هذا الجانب الخطير من كتاب الله، ويقتنعوا بفكرته، كما أنه جعل نصب عينيه أن يفسر أولًا السور القصار التي تدعو إلى الإيمان بأصول الإسلام وهي التوحيد والرسالة والمعاد، وتنذر الناس عاقبة العناد والكفر بهذه الأصول. وقد ألّف لهذا الغرض تفسير سورة الفاتحة، الذاريات، التحريم، القيامة، المرسلات، عبس، والشمس، التين، العصر، الكوثر، الكافرون، أبي لهب، الإخلاص، وقد طبع تفسير هذه السور في حياته وبعد حياته مرارًا، كما أنه تُرجم إلى اللغة الأردوية ليستفيد به جميع الناس. ثم بدأ الأستاذ الفراهي بعد ذلك تفسيره من أول القرآن ولكن المنية قد حالت دون تكميله كله.

وقد ظهر أنه كان يلجأ في تفسيره للآيات الكريمة إلى القرآن الكريم نفسه أولًا، مؤكدًا أنَّ الآيات يفسِّر بعضها بعضًا ثم كان يلجأ بعد ذلك كما صرح هو إلى سنة الرسولﷺ، وما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين في الصدر الأول... وبأساليب لغة العرب، وسُنن الله في خلقه أي الالتزام بالمنطق الداخلي المتماسك، والمنسجم للنص القرآني، والاعتصام بعواصم الأثر والخبر الصحيح، والأخذ بطرق اللغة العربية في دلالة الألفاظ والتراكيب على المعاني، ومقتضيات العقل السليم من خلال تحكيم سنن الله تعالى العاملة في الكون والتاريخ، واعتبارها

[1] قد نشرته الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم جره، الهند، في عام 2008م.

إحدى مرجعيات، ومعايير التفسير السليم... وكل ذلك في كلام بليغ وأسلوب أنيق وتراكيب سهلة.

ومن العدل أن يعترف الباحث بأن أسلوب الإمام الفراهي قد يضعف فيكون ركيكًا ملتويًا غير واضح، بل قريبًا من الأساليب والتعبيرات الهندية. ذلك "أن تلمس شأن النزول من نفس السورة. فإن الكلام لا بد أن يكون مطابقًا لموضعه كما أن الطبيب مثلًا يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كتبت له تلك النسخة. فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع كتناسب اللباس والجسم، بل كتناسب الجلود والأبدان. والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض"[1]، و"إذا احتمل كلمة أكثر من معنى واحد سألنا هل هذه الكلمة أجدر بهذا المعنى من غيرها فإن وجدنا كلمة أخرى أجدر وأقوم، وتركها القرآن، علمنا أن القرآن لا يترك أبين الكلام وأقومه، فترك ذلك المعنى وأوّلناها إلى ما هي أصوب مثل قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه) البقرة: 184في معنى المستطيع كما ذهب إليه صاحب "حجة الله البالغة" (وهو الشاه ولي الله الدهلوي)[2] فإن الإطاقة يستعمل في القوى الجسمانية".[3]

ولذلك عندي أسباب منها أنه كتب هذه العبارة على سرعة، ناويًا أنه ينقحها ولم تتح له الفرصة، أو أنه من كتاباته الأولية، أو مرد ذلك إلى أنه لم تتح له فرصة الإقامة في دولة عربية.

وهناك نوع آخر من الضعف في أسلوبه ويدركه القاري في أول وهلة وذلك أنه يشهد على رأيه بآية ثم يرد بها آية أخرى للإثبات على أن استشهاده صحيح أو أن

[1] تفسير نظام القرآن، ص 25

[2] الشاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (1703-1762م) هو العالم العبقري المجدد شيخ الإسلام وإمام المحدثين بالهند.

[3] أنظر للتفصيل: رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 240